أَضْوَاءٌ

مِنْ هَدْيِ النُّبُوَّةِ

الأستاذ الدكتور
أحمد عمر هاشم



رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
١٩٨٨٢ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى
٩٧٧ - ٣٩٩ - ٠٠٤ - ٤

الطبعة الأولى

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»
ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع العبور الحديثة

الكتاب : أضواء من هدى النبوة
المؤلف : أ . د . أحمد عمر هاشم
الغلاف : إبراهيم محمد إبراهيم
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠
فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

ففى هذا الكتاب طائفة مختارة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تتناول بعض الموضوعات الهامة التى يحتاجها كل مسلم فى أهم عباداته ومعاملاته والتعرف على دينه، وقد شرحتها شرحاً ميسراً ، مركزاً على ما ترشد إليه من أحكام دقيقة وحكم عميقة، وموضحاً ما يستنبط منها من الفوائد والأحكام.

وأدعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به كل قارئ.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛..

المؤلف

١- منزلة الطهارة وغيرها من أصول الإسلام

قال الإمام مسلم رحمه الله :

حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا أبان، حدثنا يحيى أن زيداً حدثه أن أبا سلام حدثه عن أبى مالك الأشعرى، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ».

اللغة

(الطهور) بضم الطاء هو الفعل أى التطهر على الرأى المختار، وبفتح الطاء الماء الذى يتطهر به ، قال تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان ٤٨] .

(شطر الإيمان) الشطر هو النصف ، و« الإيمان » يراد به هنا الإيمان الكامل الذى يشتمل على التصديق بالقلب ، والنطق باللسان والعمل بالأركان.

(الصلاة نور) الصلاة فى اللغة الدعاء ، وفى الشرع : هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة، وفى هذه العبارة تشبيه بليغ فكأن الصلاة نفس النور مبالغة فى هدايتها ، والتأويل

الثانى : أن الكلام على حذف مضاف والتقدير : والصلاة ذات نور ، والتأويل الثالث : بمعنى فاعل، أى الصلاة منيرة فهى مؤولة بالمشتق ، والمراد بالصلاة الشاملة للفرض والنفل .

(والصدقة برهان) قيل إن الصدقة هنا : هى الزكاة ، ولكن الأولى أنها تشمل الإنفاق الواجب والمندوب، والمراد بالبرهان هو الدليل والجملة تشبيه بليغ .

(والصبر ضياء) وهذه العبارة فى تركيبها اللغوى كسابقتها : « الصلاة نور» ومعنى الصبر : حبس النفس على الطاعة وما فيها من مشقة ، وعن المعصية وما حولها من لذة ، وعلى المصائب وما لها من ألم والرضا بما قسمه الله ، و « الضياء » : هو النور القوى المشتمل على حرارة واحتراق ، بخلاف النور ؛ فإنه محض إشراق ، فالضياء أقوى منه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس ٥] .

(كل الناس يغدو) الغدو بالضم: الخروج أول النهار وهو ضد الرواح .

(فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) الفاء الأولى للتفصيل والثانية للسببية، وبائع نفسه : هو من أنفق عمره إما فى الخير : فهو معتقها ؛ لأن الخير سبب تخليصها من الذنوب والعذاب ، وإما فى الشر فهو موبقها أى مهلكها ، لأنه أوردها مورد العذاب .

المعنى

تكلم بعض الأئمة فى إسناد هذا الحديث ، فقال الدارقطنى وغيره : سقط فيه رجل بين أبى سلام وأبى مالك ، والساقط هو : عبد الرحمن بن

غنم واستدلوا على سقوطه برواية معاوية بن سلام له عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبى سلام عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الأشعرى ، وهكذا أخرجه النسائى وابن ماجة وغيرهما ، وأجاب الإمام النووى رحمه الله : بأن الظاهر من حال مسلم أنه علم سماع أبى سلام لهذا الحديث من أبى مالك ، فيكون أبو سلام سمعه من أبى مالك ، وسمعه أيضاً من عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك، فرواه مرة عنه ومرة عن عبد الرحمن ، وعلى أية حال فإن متن الحديث صحيح لا مطعن فيه كما قال النووى .

وفى هذا الحديث الشريف توجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعض أصول عامة من أصول الإسلام التى تنهض بحياة الأفراد والجماعات إلى الدنيا والآخرة ، وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى كل أصل من هذه الأصول ؛ فأبرز أهم جوانبه نفعاً فى إيجاز بليغ من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

فابتدأ أولاً بالطهارة ؛ لأنها أساس العبادة ، وبها تتم التخلية من الرذائل الحسية أو المعنوية ، وتقوم بتهيئة المسلم للتحلى بفضائل الإسلام، فقال : « الطهور شطر الإيمان » وقد ورد فى معنى هذه العبارة جملة من الآراء ، نرى من تمام الفائدة أن نوردها ثم نعقب عليها ، ونرجح ما نراه منها أرجح إن شاء الله :

١- قيل ، معنى الطهور شطر الإيمان : أن الأجر فيه ينتهى تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان .

ونرد على هذا القول : بأن الطهور عمل ظاهر ، والإيمان عمل باطن فكيف نصف أجره ، مع أن الإيمان قد يطلق على الدين كله ، هذا بالإضافة إلى أن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير .

٢- وقيل : معناه أن الإيمان يجب ما قبله من الخطايا، وكذلك الوضوء؛ لأن الوضوء لا يصح إلا مع الإيمان فصار لتوقفه على الإيمان فى معنى الشطر.

ويجاب على هذا القول : بأن كون الوضوء متوقفاً على الإيمان لا يستلزم أن يكون شطره أو فى معنى شطره ، فالإيمان له شعب كثيرة ، وكون الوضوء يغفر الله بسببه بعض الذنوب لا يفيد المعنى لأنها صغائر بخلاف الإيمان .

٣- وقيل المراد بالإيمان الصلاة كما قال الله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة ١٤٣] والطهارة شرط فى صحة الصلاة فصارت كالشطر، وليس بلازم فى الشطر أن يكون نصفاً حقيقياً ، وقد رجح النووى هذا القول .

ويرد على هذا القول : بأن فيه تعسفاً فى التأويل ، لخروج العبارة عن ظاهرها، حيث أطلق الشطر على الشرط ، والإيمان على الصلاة وإن ساغ المجاز فى موضع العلاقة فليس بسائغ فى جميع المواضع .

٤- وقيل : إن الإيمان تصديق بالقلب وانقياد بالظاهر وهما شطران للإيمان والطهارة متضمنة للصلاة فهى انقياد فى الظاهر.

والجواب على هذا الرأى ، أنه إن جعل الطهارة متضمنة للصلاة وهى رمز للانقياد الظاهرى ؛ فإن العمل والانقياد ليس شطر الإيمان ، بل هو شرط فيه .

٥- وأقرب الآراء وأقواها هو أن الطهور معناه : التطهير والتنزه من سائر النجاسات ، حسية كانت أو باطنية وهذا ما نرجحه ونستحسنه ؛ فإن

الطهارة فى الإسلام على ضربين :

أحدهما : حسية ، وهى طهارة البدن والثوب والمكـان مـن كـل حـدث ونجس بالوضوء والغسل ، وإزالة النجاسة .

والثانى : طهارة معنوية باطنة ، وهى طهارة القلب من الريـاء والحقـد والبغضاء وما إلى ذلـك مـن الرذائـل الباطنـة ، وقـد أمـر الله تعـالى بتطـهير الداخـل والخـارج ، وصـح أن تطـهير الداخـل بالتوبـة إلى الله ، وتطــهير الخارج بإزالة الحدث أو النجس بالمـاء ، قـال الله تعـالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة ٢٢٢] .

وقال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر ٤] .

وقال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله فى الإحياء : إن الطــهارة علـى مراتب : أولهـا طـهارة الأعضـاء مـن الحـدث والخبـث ، وثانيـها تطـهير الجـوارح عـن الشـرور والمعـاصى ، وثالثـها تطـهير البـاطن مــن الأخــلاق المذمومة ، ورابعها تطهير السر عما سوى الله تعالى ، قـال : والطـهارة فـى كل مرتبة نصف العمل الذى يطلب فيها ، فإن المقصود مـن تطـهير القلـب عما سوى الله شغله بجلال الله تعـالى ، والمقصـود مـن تطـهير البـاطن عـن الأخلاق الذميمة ، شـغله بـالأخلاق الحميـدة ، وكذلـك يقصـد بـالبعد عـن الخطايا الاشتغال بالطاعات كما يقصد بالوضوء والغسـل إقامـة الصلـوات ، لذلك كان الطهور نصف الإيمان بهذا المعنى أهـ .

ثم وجه الرسـول صلـى الله عليـه وسـلم المسـلمين إلى منزلـة الحمـد لله سبحانه وتعالى ، فقال : والحمد لله تملأ الميزان ، وقد ثبت بنـص القـرآن والسنة وجود الميزان يوم القيامة ، وأن الأعمال توزن به وأن للموازين ثقـلاً وخفة ، ومعنى هذه العبارة : أن كلمة « الحمد لله » تجسد وتملأ الميزان ،

ويترتب على هـذا عظيـم ثوابـها ، ولا مـانع أن يخلـق الله تعـالى الأعمـال بأجسام حقيقية بـأن تكـون الأعمـال الصالحـة بيضـاء مشـرقة ، والأعمـال السيئة سوداء مظلمة .

وهناك معنى ثان : هو أن ثواب كلمة « الحمد لله » يملأ الميزان ؛ لمـا لهذه الكلمة من الثواب العظيـم ، حتـى إن بعـض العلمـاء ذهـب إلى أنـها أفضل من كلمة التوحيد ، لأن كلمة التوحيد تحمل معنى واحداً هو الإقـرار بالوحدانية بخـلاف كلمـة « الحمـد لله » ، ففيـها الإقـرار بالوحدانيـة ، والاعتراف لله تعالى بالحمد والشكر، فهى أكثر معنى من كلمـة التوحيـد ، والأرجح أن كلمة التوحيد أفضل ؛ لأنها الفاصل بين الإيمان والكفر ، وهى أساس القبول لكل عمل ، وقد روى الترمذى وابن ماجة والنسائى عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم : « أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله».

وللحمد منزلة جليلة عند الله تعالى تتبين من افتتاحـه الكثـير مـن سـور القرآن وختمها بالحمد الله ، وأن الحمد كمـا يكـون فـى الدنيـا يكـون فـى الآخرة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّـا الْحَـزَنَ﴾ [فـاطر٣٤] ،﴿دَعْوَاهُـمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِـرُ دَعْوَاهُـمْ أَنِ الْحَمْـدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس ١٠] .

والتعبير بالحمد أبلغ من غيره ، لأن الألف واللام لاستغراق كـل أنـواع الحمد من حمد الإنسان وحمد غيره، وهكذا بخلاف التعبير بمثل : أحمـد الله أو حمداً لله .

والله تعالى مستحق للحمد ، ويحب من عبـاده أن يحمـدوه فـى السـراء

والضراء وفى الشدة والرخـاء ، وأعـد للحـامدين جـزاء كبـيراً وحسـبهم أن «الحمد لله تملأ الميزان » .

وأما قوله صلى الله علية وسلم : « وسـبحان الله والحمـد لله تمـلآن أو تملأ ما بين السموات والأرض» فالتسبيح تنزيه الله تعالى عن كل نقـص ، والحمد الاعتراف لله بكل نعمة وخير .

وذهب بعض العلماء إلى أن كـلا مـن « سـبحان الله » و« الحمـد لله » يملأ ما بين السماء والأرض . وذهب بعضهم إلى أنهما معاً يملآن ذلك .

ولمنزلة التسبيح عند الله جاء فى القرآن الكريم بصيغ متعددة فجاء مـرة بصيغة الفعـل المـاضى « سَبَّحَ لله ، وأخـرى بصيغـة المضـارع « يُسَبِّحُ » وغيرهما بصيغة الأمر ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى ١] ومـرة أخـرى بصيغة المصدر « فسبحان الله .. » .

وليس التسبيح قاصراً علـى العقـلاء مـن النـاس ، وإنمـا يشـمل جميـع الخلق من إنس وجن وملائكة وحيوان ونبات وطير وما إلى ذلـك ، وتسـبيح العقلاء بالصيغ المعهودة ، وتسبيح غيرهم بلغة يعلمها الله تعالى ، أو بلسان الحال ، وصدق الله تعالى فى قوله :﴿ تُسَبِّحُ لَـهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء ٤٤] .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن الثواب الجزيل الـذى أعـده الله للمسـبحين والحامدين إنما هو لمن راقب الله فى السر والعلانية ، واجتنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وكان صادق الإيمان حاضر القلب ، أما مجرد جريان الكلمات على اللسان فقط دون حضور القلب فلا يدخل مثل هذا فى الثواب المعد عند الله تعالى .

ويحتمل فى معنى الكلمتين : أن ثوابهما كثير بحيث لو كان جسماً لملأ ما بين السماوات والأرض . ويحتمل أن يكون المعنى : أن هاتين الكلمتين لو تجسدتا لصارتا جسماً يملأ ما بين السماوات والأرض ، لما لها من جزاء كبير ، وفضل وافر ؛ لاشتمالهما على تنزيه الله تعالى والاعتراف له بالنعمة التى يستحق عليها الحمد ، وما بكم من نعمة فمن الله .

وقال الإمام النووى رحمه الله فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم السابق : ضبطناه بالتاء المثناة من فوق فى « تملآن أو تملأ » وهو صحيح، فالأول : ضمير مؤنثتين غائبتين ، والثانى : ضمير هذه الجملة من الكلام. وقال صاحب التحرير : يجوز « تملآن » بالتأنيث والتذكير جميعاً ، فالتأنيث على ما ذكرناه ، والتذكير على إرادة النوعين من الكلام ، أو الذكرين قال : وأما يملأ فمذكر على إرادة الذكر. أهـ .

وأما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة نور » فيراد بالنور الهداية لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥] ، فالصلاة تهدى صاحبها إلى كل معروف وخير، وتكفه عن كل منكر وشر ، فهى كالنور الذى يضىء للسائر طريقه ، فهى على هذا المعنى نور معنوى يصل بالمسلم إلى مرضاة ربه سبحانه .

وهناك قول ثان هو : أن يكون أجرهما نورًا لصاحبهما يوم القيامة فينعم المصلون بثواب الصلاة فى الآخرة ، حيث يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وكما روى : « بَشِّر المشائين فى ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

والقول الثالث : « إنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانشراح القلب ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه » ومعنى هذا : أن فى الصلاة متنفساً للمتعبين المنكوبين . فإذا استعان أحد بالصبر والصلاة وجد الله معه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة ١٥٣] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فهى مرفأ الراحة والطمأنينة ، ومنزل النور والسكينة .

والقول الرابع : أن الصلاة تكون نوراً لمن يقيمها فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيكون على وجهه البهاء بما يظهر عليه من أثر الطاعة وإشراق العبادة قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود﴾ [الفتح٢٩] .

ويمكن أن تجتمع كل هذه الثمرات الكريمة لمقيم الصلاة ، ولكن على شرط أن يؤديها كاملة بسائر أركانها وسننها وهيئاتها وخشوعها ، ولا غرابة أن يكون لها كل هذا الفضل ، فهى ميزان الأعمال الأخرى . روى الطبرانى فى الأوسط : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « والصدقة برهان » فيتبين لنا من ذكرها بعد الصلاة حسن التوافق بينهما ، وجمال النسق ، لأن فى الصلاة مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت الشدة ، وعلاجاً للنفوس المناعة للخير ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج ١٩-٢٣] فكأن الدائمين على صلاتهم المحافظين عليها لا يكون أحدهم مناعاً للخير

بل يكون سخياً متصدقاً ، ففى الصدقة دليل على صدق إيمانه بالله ، وثقته بما عند ربه، وأنه يخلف على المنفقين ، وما عند الله خير وأبقى ، فالصدقة دليل على صدق الإيمان ، ينفقها صاحبها فى كل وقت يتمكن فيه ، فلا يمتنع عنها فى سراء أو ضراء ما دام مخلصاً لله وتلك أولى علامات المتقين كما قال تعالى :﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاء.. ﴾ [آل عمران ١٣٣- ١٣٤] .

وذكر صاحب التحرير معنى آخر لكون الصدقة برهاناً ؛ فقال : معناه يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين فى جواب هذا السؤال ، فيقول : تصدقت به ، قال ويجوز أن يوسم المتصدق بسيما يعرف بها فيكون برهاناً له على حاله ولا يسأل عن مصرف ماله أهـ .

ثم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ثمرة الصبر فى قوله : « والصبر ضياء» ولعل تأخير الصبر عن غيره من الفضائل فى ترتيب الحديث ، ويشير إلى أهميته فى تمام الأعمال، حيث إنه مطلوب فى كل عمل ، وبه تمام كل عبادة، هذا مع ملاحظة أن « الواو » لا تفيد ترتيباً ، بل إن الصبر فى الترتيب مقدم على الجميع ، وإشارة إلى مكانته الجليلة وأهميته قدمه الله تعالى فى القرآن على الصلاة، قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ [البقرة ٤٥] وقال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقون ﴾ [الحج٣٤ - ٣٥] .

والصبر ثلاثة أنواع :

١- صبر على الطاعة واحتمال كل مشقة فى سبيل القيام بها على أكمل وجه.

٢- وصبر عما حرم الله من المعاصى ، فيأخذ المسلم نفسه بما أمر الله ، ويحبسها عن كل إغراء أو فتنة .

٣- وصبر على نوائب الحياة حتى يمكنه التغلب عليها واحتمال مرارتها ومشقتها .

والصبر الحقيقى المطلوب فى الشرع ، وهو المكون من هذه الأنواع الثلاثة، وهو الصبر المحمود الذى يستضىء به صاحبه فى حياته ويهتدى به إلى طريق الصواب ، وهذا معنى : « والصبر ضياء » وقيل: إن المراد بالضياء ما يكون من ثمرة الصبر فى الآخرة ، وما يورثه لصاحبه من ثواب عظيم ، هذا الثواب يراه الصابر نوراً يوم القيامة ، هذا بالإضافة إلى ما يحسه الصابرون من نور قلبى ، وهدوء نفسى ، وجزاء موفور ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ١٠].

ويلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عبر فى جانب الصلاة بأنها نور ، وفى الصبر ضياء ، وهذا التعبير موافق لمنزلة كل منهما ، فالصبر أقوى تأثيراً من الصلاة وهو مطلوب فى جميع الأعمال ، وتحتاج سائر العبادات إليه ؛ فلذا ناسب أن يكون ضياء ؛ لأن الضياء أكثر من النور إشراقاً ، وأقوى منه وضوحاً ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس ٥] .

وفى قوله : « والقرآن حجة لك أو عليك » توضيح لموقف الناس من كتاب الله تعالى ، وما يترتب على ذلك من نتائج .

فالقرآن حجة لمن سار على هديه ؛ لأنه المصدر الأول للتشريع الإسلامى، ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء٩] فمن امتثل أوامره ، واجتنب نواهيه ، واتبع ما جاء به ، كان دليلاً له فى دنياه ، إلى طريق السعادة والنجاة ، وكان حجة له فى كل أمر ؛ لأن من قال به صدق ومن عمل به رشد ، ومن ضل عنه غوى ومن تمسك به اهتدى إلى صراط مستقيم .

كما يكون القرآن حجة فى الآخرة كذلك ، لأولئك الذين عملوا بما جاء به ، ونفذوا أحكامه ، وطبقوا تعاليمه ، فيكون حجة نافعة ، وبرهاناً ساطعاً ، وشفيعاً لأصحابه ، عن أبى أمامه الباهلىّ رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله علية وسلم يقول : « اقرأوا القرآن فهو يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

ويكون القرآن حجة على غير القارئين ، التاركين العمل به ، يكون حجة عليهم فى دنياهم وهى دار التكليف التى أمروا فيها ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، ووضح القرآن لهم الطريق إلى الله فلم يتبعوه ، وبيَّن لهم قوانين السعادة وأسباب العدل والخير ، فابتعدوا فكان حجة عليهم فيها .

وحجة عليهم فى الآخرة ، حيث تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ، وحجة على أولئك الذين عدلوا عن القرآن ، وأولئك الذين أغروا غيرهم بألا يستمعوا إليه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت ٢٦] .

فكل من ترك القرآن ولم يتدبره ولم يعمل به ولم يمتثل أوامره ونواهيه، فهو حجة عليه والرسول شاهد عليه، قال تعالى مخبراً عن الرسول عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان٣٠] .

ثم ختم الرسول صلى الله عليه وسلم بيانه لهذه الأصول الهامة بموقف كل إنسان منها ، وبيَّن ذلك فى قوله : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

والغدو هو الخروج أول النهار ، وهذا يدل على النشاط فى السعى والعمل ، والمراد : أن كل الناس يسعى ويعمل ، لأنه يلزم على الغدو أن يكون نشيطاً مجتهداً ، ومن كان نشاطه واجتهاده فى الخير وفى طاعة الله، فقد باع نفسه لله ، وأعتقها من العذاب ، ومن كان سعيه فى الشر فقد باع نفسه للشيطان وعرضها للهلاك وذلك هو الخسران المبين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل ٤-١١]وقال : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة ٧،٨] .

ما يؤخذ من الحديث

١- منزلة الطهارة فى الإسلام ، وأنها شطر الإيمان .

٢- دعوة الإسلام إلى طهارة الظاهر والباطن .

٣- فضل « الحمد » وأنه عبادة لها عند الله ثواب عظيم .

٤- فضل « التسبيح » ووجوب تنزيه الله تعالى عن كل نقص .

٥- بيان ثمرة الصلاة والصدقة والصبر فى الدنيا والآخرة وتوضيح ما لكل فضيلة من هذه الفضائل من أثر فى النفوس .

٦- حث المسلم على تلاوة القرآن والعمل بأحكامه ، وأنه شاهد له أو عليه يوم القيامة .

٧- أن الناس فريقان ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير فأما أهل الجنة فهم الذين عملوا فى الدنيا لإسعاد أنفسهم ، وأما أهل السعير فهم الذين عملوا على شقائها ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

٨- ثبوت الميزان وأنه حق ، كما جاء فى القرآن والسنة ، وأن أعمال العباد توزن به .

٩- أن هذا الحديث نموذج من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن كل أصل من هذه الأصول التى ذكرت فى الحديث ، إما أن تكون ثمرة لأصل آخر ، أو سبباً يؤدى إلى فضيلة أخرى ، فالطهارة مثلاً شاملة لكل أنواع التنزه والتطهر من سائر النجاسات والرذائل، والعقائد والتحميد والتسبيح فيهما اعتراف بنعم الله ، وتنزيه له عن كل نقص، فهما من ثمار الإيمان الصادق بالله، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصدقة تطفئ غضب الرب وتسد حاجة المجتمع ، وتدل على صدق إيمان صاحبها ، والصبر يضىء لصاحبه الطريق ، ويعين على سائر العبادات الأخرى ، والقرآن هو المصدر الأول للتشريع وفيه هدى للمتقين، وبيان لسائر أركان الدين ، فالناظر إلى هذه الأمور فى تفصيلها يرى أنها تستوعب أمور الدين جملة ، ولذا خصها بالذكر لأهميتها ، وجاءت فى عبارة موجزة دالة على جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

٢- من أحكام الطهارة

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى :

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم، فأتى بصبى فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله .

وحدثنا زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصبى يرضع فبال عليه فى حجره فدعا بماء فصبه عليه » .

وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عيسى، حدثنا هشام بهذا الإسناد مثل حديث ابن نمير .

حدثنا محمد بن رمح بن المهاجر ، وأخبرنا الليث، عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله، عن أم قيس بنت محصن أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن لها لم يأكل الطعام فوضعته فى حجره فبال ، قال: فلم يزد على أن نضح بالماء.

اللغة

« كان يؤتى بالصبيان » الصبيان جمع صبى وهو الغلام ، ويجمع على صبية وصبيان بكسر الصاد وهى اللغة المشهورة، وحكى ابن دريد ضمها ،

ويقال : صبى بين الصبا والصباء ، إذا فتحت الصـاد مـددت وإذا كسـرت قصرت ، والجارية ، صبية ، وجمعها : الصبايا .

« فيـبرك » بمعنـى يبـارك ، أى يدعـو لهـم ويمسـح عليـهم ، وأصـل البركة : ثبوت الخير وكثرته .

« ويحنكهم » وهذه الرواية بالتشديد وهى الأشـهر ، وفـى الكلمـة لغـة أخرى بالتخفيف ، والتحنيك : هو أن يمضغ التمر أو نحوه ثـم يدلـك بـه حنك الصغير.

« نضح » النضح : الرش وبابه : ضرب .

المعنى

فى هذا الحديث النبوى الشريف ، لم يرو للرسول صلى الله عليه وسـلم قول صريح ، وإنما روى فعل من أفعاله قام على أساس حكم شرعى .

ومعلوم أن الحديث النبوى : هو ما أضيف إلى الرسـول صلـى الله عليـه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

وهذا الحديث من النوع الثانى ، وهو فعله صلى الله عليه وسـلم ، فقـد كان الناس يأتون بالصبيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتبركوا به ، فيدعو لهم ويمسح عليهم ، ويحنكهم ، فأتى بصبى فبال عليه ، فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله ، وفى الروايـة الأخـرى : « أتـى النبـى صلـى الله عليه وسلم بصبى يرضع فبال فى حجره فدعا بمـاء فصبـه عليـه » . وفـى رواية أم قيس : « أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم بابن لهـا لم يـأكل الطعام فوضعته فى حجره فبال فلم يزد على أن نضح بالماء » .

وفى رواية : « فدعا بماء فرشه » . وفى رواية : « فنضحه على ثوبه ولم يغسله غسلاً ».

أما تعيين الصبى ، فقيل : هو ابن أم قيس ، وقيل : يحتمل أن يكون الصبى هو الحسن بن على أو الحسين ، فقد روى الطبرانى فى الأوسط من حديث أم سلمة بإسناد حسن ، قالت : « بال الحسن أو الحسين على بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتركه حتى قضى بوله ثم دعا بماء فصبه عليه ، وروى الطحاوى بلفظ : « فجىء بالحسن » دون تردد .

ونرجح أنه غير الحسن ، لما روى أنه بال فى حجره ، وما روى أيضاً: أنه بال على ثوبه ، وأما قصة الحسن ففى حديث أبى ليلى وأم سلمة أنه بال على بطنه صلى الله عليه وسلم ، وعند الطبرانى : أنه جاء وهو يحبو والنبى صلى الله عليه وسلم نائم فصعد على بطنه.. .. إلخ ، وبهذا يظهر الفرق بين الحالتين مما يقوى أنهما مختلفان ، قال الحافظ فى الفتح : يظهر لى أن المراد به ابن أم قيس المذكور .

والمراد بقوله : لم يأكل الطعام : أى ماعدا اللبن الذى يرتضعه والتمر الذى يحنك به والعسل الذى يلعقه للمداواة وغيرها ، أى أنه لا يحصل له الغذاء بما سوى اللبن على جهة الاستقلال ، وقيل : لم يطعم ولم يشرب غير اللبن. وقال ابن التين : يحتمل أنها أرادت أنه لم يتقوت بالطعام ولم يستغن به عن الرضاع .

ويحتمل أنها إنما جاءت به عند ولادته ليحنكه فيحمل النفى على عمومه. اهـ ، من الفتح .

وقد اختلف العلماء فى حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله على ثلاثة مذاهب ، وهى أوجه للشافعية :

الأول : وهو أصح المذاهب الاكتفاء بالنضح فـى بـول الصبـى لا الجاريـة، وهو قول على وعطاء والحسن والزهرى وأحمد وإسحاق وابـن وهـب وغيرهم.

الثاني : أنه يكتفى بالنضح فـى بـول كـل مـن الصبـى والجاريـة ، وهـو مذهب الأوزاعى ، وحكى عن مالك والشافعى .

الثالث : أن بول كل مـن الصبـى والجاريـة سـواء فـى وجـوب الغسـل ، وبهذا الرأى قال الحنفية والمالكية .

وقد ذكر العلامة ابن القيم وجه التفرقة بين بول الصبى والصبية، فقال: والفرق بين الصبى والصبية من ثلاثة أوجه :

أحدها : كثرة حمل الرجال والنساء للذكر فتعم البلوى ببوله فيشق غسله.

والثانى : أن بوله لا ينزل فى مكان واحد بل ينزل متفرقاً ههنا وهـهنا ، فيشق غسل ما أصابه كله بخلاف بول الأنثى .

والثالث : أن بول الأنثى أخبث وأنـتن مـن بـول الذكـر ، وسـببه حـرارة الذكر ورطوبة الأنثى ، فالحرارة تخفف من نتن البول وتذيب منها مالا يحصل مع الرطوبة اهـ.

وإذا نظرنا إلى ما ذكره ابن القيم من التفرقة بين بول الصبـى والصبيـة ، نجد أنه ذكر الأمور السابقة كأسباب مـن أجلـها اكتفـى بـالنضح مـن بـول الذكر ، والغسل من بول الأنثى ، وقبل مناقشة كلام ابن القيم فـى ذلـك ، والإدلاء برأينا فى المسألة ، لابد من ذكر شرط هام فى ذلك وهو : ألا يطعم الصبى الطعام ، أما إذا أكل الطعام على وجه التغذية فإنـه يجـب الغسـل بلا خلاف .

ولنعد إلى مناقشة كلام ابن القيم :

أما ما ذكره أولاً من كثرة حمل الرجال والنساء للذكر ، فليس حملهم للذكر عاماً عند الجميع ، فالنفوس مختلفة الطبائع ، متباينة الأمزجة ، وميول الناس ليست متفقة فى ذلك ، وقد يحب البعض حمل الأنثى أكثر من الذكر ، ولو كانت هذه هى العلة لاقتضى الأمر عدم وجوب غسل ثياب النساء من بول الصبية لكون الابتلاء بذلك أشد فى حقهن ، لاختصاصهن بحمل الأولاد.

وأما ما ذكره من أن بول الأنثى أخبث من بول الذكر فهذا صحيح ، كما أثبت الطب ؛ نظراً لاشتمال بول الأنثى على بعض الإفرازات [1] .

وأما ما ذكره من أن بول الصبى لا ينزل فى مكان واحد بل ينزل متفرقاً ههنا وههنا فيشق غسل ما أصابه كله بخلاف بول الأنثى فهذا أيضاً صحيح بحكم التكوين الخلقى للذكر ، ولا تختلف فيه ظروف الصبى ، وقد أخرج الطحاوى عن ابن المسيب : « الرش من الرش والصب من الصب » يريد أن مخرج البول من الصبى ضيق فيكون بوله رشاً فيكون فيه بالرش على موضع الإصابة ، ومن الصبية واسع فيكون بولها صباً فيصب الماء على موضع الإصابة ، وعلى هذا نرى ترجيح هذين السببين الأخيرين، وهما خبث بول الأنثى ونزول بول الصبى رشاً متفرقاً ، والله تعالى يريد بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر .

وأما بالنسبة لمذاهب العلماء التى ذكرت، وملخصها :

١- النضح فى بول الذكر والأنثى .

---

(١) فهو يخرج مختلطاً ببعض إفرازات المهبل الملاصق لقناة مجرى البول كما هى خلقته، وقد صرح بهذا أطباء المسالك البولية .

٢- الغسل منهما .

٣- نضح بول الذكر وغسل بول الأنثى .

فإننا نرجح المذهب القائل بالنضح في بول الصبي والغسل من بول الصبية ؛ لورود الأحاديث الصحيحة الصريحة في ذلك ، ففي حديث البخاري « فنضحه ولم يغسله » وفي حديث مالك : فنضح عليه ولم يغسله « وبهذا يرد على من قال بوجوب الغسل فيهما . وفي الموطأ قال محمد : قد جاءت رخصة في بول الغلام إذا كان لم يأكل الطعام وأمر بغسل بول الجارية ، وغسلهما جميعاً أحب إلينا ، وهو قول أبي حنيفة ، وحديث لبابة عند أحمد وأبي داود وابن ماجة مرفوعاً : « إنما ينضح من بول الذكر ويغسل من بول الأنثى » وحديث أبي السمح عند أبي داود والنسائي وابن ماجة مرفوعاً : «يغسل من بول الجارية ويرش من بول الغلام ، كل هذا يرد قول من ذهب إلى الاكتفاء بالنضح فيهما ، ولا مجال بعد هذا إلى حمل البعض النضح والرش ، على الغسل ، أو حملهم قوله : « لم يغسله » على الغسل المبالغ فيه ، خاصة بعد وضوح الأحاديث السابقة.

والخلاف السابق إنما هو في كيفية التطهير فحسب من بول الصبي ، أما نجاسته فلا خلاف فيها ، وقد نقل البعض إجماع العلماء على نجاسة بول الصبي ولم يخالف في ذلك إلا داود الظاهري .

قال الخطابي وغيره : وليس تجويز من جوز النضح في الصبي من أجل بوله ليس بنجس ، ولكنه من أجل التخفيف في إزالته .

واختلف العلماء في حقيقة النضح ، فذهب الشيخ أبو محمد الجويني والقاضي حسين والبغوي : إلى أن معناه أن الشيء الذي أصابه البول يغمر

بالماء كسائر النجاسات بحيث لو عصر لا يعصر ، على أحد الوجهين ، وهذا لا يشترط بالاتفاق.

وذهب إمام الحرمين والمحققون إلى أن النضح أن يغمر ويكاثر بالماء مكاثرة لا يبلغ جريان الماء وتردده وتقاطره ، بخلاف المكاثرة فى غيره فإنه يشترط فيها أن يكون بحيث يجرى بعض الماء ويتقاطر من المحل وإن لم يشترط عصره ، وهذا هو الصحيح المختار ، ويدل عليه قولها : « فنضحه ولم يغسله ، وقولها : « فرشه » أى نضحه اهـ شرح النووى .

ما يؤخذ من الحديث

١- أن بول الصبى يكتفى فى تطهيره بالنضح.

٢- التبرك بأهل الصلاح والفضل ، واستحباب حمل الأطفال إليهم للتبرك بهم ، فى حال الولادة أو بعدها .

٣- التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حسن معاشرته وعظيم تواضعه قال تعالى :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران ١٥٩] .

٤- الرفق بالأطفال الصغار وغيرهم .

٥- استحباب تحنيك المولود .

٦- يسر الدين الإسلامى وسماحته ، قال تعالى :﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة ١٨٥] وقال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج ٧٨] .

❁❁❁

٣- وجوب الاستبراء

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين ، فقال : أما إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، قال : فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا (حدثنيه أحمد بن يوسف الأزدى حدثنا معلى بن أسد حدثنا عبد الواحد عن سليمان الأعمش بهذا الإسناد غير أنه قال : وكان الآخر لا يستنزه عن البول أو من البول) رواه مسلم .

شرح المفردات

(أما إنهما ليعذبان) « أما » أداة استفتاح وتنبيه وهى حرف لتحقيق الكلام الآتى بعدها . والضمير فى « إنهما » ليس له مرجع مذكور صراحة ولكن سياق الكلام يدل عليه ، ونظيره : قول الله تعالى : ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [النساء ١١] فأعاد الضمير فى قوله «لأبويه» على الميت مع أنه ليس مذكوراً ، وذلك لدلالة السياق عليه ، ويحتمل أن يعود الضمير على القبرين المذكورين على طريق المجاز ، ويكون المراد بالقبرين من فيهما لأنهما لا يعذبان ، وإنما الذى يعذب الرجلان اللذان فى القبرين .

(وما يعذبان فى كبير) « فـى » للتعليـل ، كقـول الرسـول صلـى الله عليه وسلم : « عذبت امرأة فى هرة » أى من أجلـها ، وكلمـة « كبـير » صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : « وما يعذبان من أجل ذنـب كبـير » « النميمة » هى نقل كـلام النـاس بعضـهم إلى بعـض علـى جهـة الإفسـاد بينهم .

قال الجوهرى وغيره : يقال نم الحديث ينمه وينمه بكسر النون وضمها نماً والرجل نمام . « لا يستتر مـن بولـه » أى لا يجعـل بينـه وبـين بولـه ساتراً بمعنى لا يتحفـظ منـه ، وفـى هـذه العبـارة روايـات أخـرى سـيأتى بيانها. «يستنزه » من التنزه وهو الإبعاد .

« العسيب » بوزن فعيل : هو الجريد من النخل ، الذى لم ينبت فيـه خوص، فإن نبت سمى السعفة :

« فشقه باثنين » الفاء عاطفة علـى المحـذوف ، والتقديـر : فـأتى بـه فشقه ، والباء زائدة للتوكيد واثنين مفعول مطلـق مبـين للعـدد، أو حـال . قال النووى : وزيادة الباء فى الحال صحيحة معروفة .

« لعله أن يخفف » قال ابن مالك : يجوز أن تكون الهاء ضمير الشأن، وجاز تسيره بأن وصلتها ، لأنها فى حكم جملـة ، لاشـتمالها علـى مسـند ومسند إليه ، قال : ويحتمل أن تكون أن زائدة مع كونـها ناصبـة كزيـادة الباء مع كونها جارة ، ويؤيد القول بزيادتها حـذف أن فـى روايـة أخـرى «لعله » يخفف بدونها.

وقال الكرمانى : شبه لعل بعسى فأتى بأن فى خبره ، ونائب فاعل يخفف، ضمير يعود على العذاب المفهوم من قوله : « يعذبان » .

« ما لم ييبسا » فعل مضارع مسند لألف الاثنين مجزوم بلم وعلامة الجزم حذف النون والألف فاعل ، و « ما » مصدرية زمانية . والتقدير : مدة دوامهما إلى زمان اليبس.

المعنى

فى هذا الحديث الشريف توجيه نبوى حكيم ، يوجه المسلم إلى أول منازل الحياة الأخرى ، وصورة توضيحية لما يحدث من عذاب هو المقدمة لعذاب يوم القيامة ، فإذا كان أول ما يقضى فيه من حقوق الله الصلاة ومن حقوق العباد الدماء ، فإن مقدمتهما إنما هى الطهارة بالنسبة للصلاة والنميمة لدماء العباد ، فإن القبر يقضى فيه بين العباد مقدمات حقوق الله، وحقوق الناس.

وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببستان فى المدينة فقال : إنه لأم مبشر الأنصارية ؛ فأطلعه الله تعالى على حال رجلين ، وكشف له شأنهما ، فسمع صوتهما وهما يعذبان فى قبريهما ، فأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن شأنهما ، وسبب عذابهما ليتحاشاه الناس وليتحفظوا من الوقوع فيه ، فقال : « أما إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير » وجاء فى رواية البخارى : « وما يعذبان فى كبير وإنه لكبير » أخرجه فى باب النميمة من كتاب الأدب وأخرجه فى كتاب الوضوء : « وما يعذبان فى كبير بل إنه كبير » ويمكن التوفيق بين نفى الكبر وإثباته ، بأن المنفى إنما هو الكبر بحسب أنظار الناس وأن الثابت هو كبره عند الله ، كما فى قول

الله تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ [النور ١٥] وقيل : إن ترك ذلك ليس بكبير عليهما ولا يشق الاحتراز عنه .

وحكى القاضى عياض رحمه الله تعالى تأويلاً ثالثاً : أى ليس بأكبر الكبائر ، وعلى هذا يكون هذا الزجر والتحذير لغيرهما ، أى لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا فى أكبر الكبائر والموبقات فإنه يكون فى غيرها اهـ النووى ، وقال أبو عبد الملك اليونى : يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم ظن أن ذلك غير كبير ، فأوحى إليه فى الحال بأنه كبير فاستدرك وتعقب بأنه يستلزم أن يكون نسخاً ، والنسخ لا يدخل الخبر ، وأجيب : بأن الحكم بالخير يجوز نسخه فقوله : وما يعذبان فى كبير إخبار بالحكم فإذا أوحى إليه بأنه كبير فأخبره به كان نسخاً لذلك الحكم .

وقيل : يحتمل أن الضمير فى قوله : « وإنه » يعود على العذاب لما ورد فى صحيح ابن حبان من حديث أبى هريرة : يعذبان عذاباً شديداً فى ذنب هين .

وقيل : الضمير يعود على أحد الذنبين ، وهو النميمة لأنهما من الكبائر بخلاف كشف العورة ، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : وهذا مع ضعفه غير مستقيم ، لأن الاستتار المنفى ليس المراد به كشف العورة فقط .

وقال الداودى وابن العربى : كبير المنفى بمعنى أكبر ، والمثبت واحد الكبائر أى ليس ذلك بأكبر الكبائر كالقتل مثلاً وإن كان كبيراً فى الجملة .

وقيل : ليس بكبير فى الصورة لأن تعاطى ذلك يدل على الدناءة والحقارة وهو كبير فى الذنب اهـ من الفتح . وقيل ليس بكبير بمجرده ، وإنما صار كبيراً بالمواظبة عليه ؛ لأن الإصرار على الصغيرة يجعلها تأخذ

حكم الكبيرة، وسياق العبارة يفيد ذلك حيث جاء التعبير بالمضارع الذى يفيد التجدد والحدوث .

والذى نرجحه ، هو أن المراد ليس بكبير فى مشقة الاحتراز عنه ، وليس المراد أنه ليس من الكبائر ، فإنه يترتب عليه كبيرة من الكبائر ، فعدم التنزه يؤدى إلى بطلان الصلاة وبطلانها كبيرة كعدم القيام بها وكذلك الحال بالنسبة للمشي بالنميمة ؛ لأنه يترتب عليه الوقيعة والإفساد بين الناس وهذا أيضاً من الكبائر لا سيما مع المداومة وقد ترجم البخارى بما يؤيد ذلك فقال : باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله ، وفى كتاب الأدب قال : باب النميمة من الكبائر ، فهما من الكبائر وهذا الذى رجحناه هو ما جزم به البغوى وغيره ورجحه ابن دقيق العيد وجماعة .

ولم يعرف اسم هذين الرجلين ، ولا أحدهما . وقد يكون عدم ذكر الاسم ستراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ مخافة فضيحتهما ، كما هو معهود فيه صلوات الله وسلامه عليه من الرأفة والرحمة ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وربما يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر التسمية ، ليتحفظ غيرهما وليحترز الناس من الوقوع فى مثل ذلك . ولكن رواة الحديث لم يصرحوا بالتسمية عن عمد منهم للستر عليهما ، وهذا ما ينبغى أن يكون تجاه من وقع فى حقه ما يذم عليه .

قال الحافظ فى الفتح : وما حكاه القرطبى فى التذكرة وضعفه عن بعضهم أن أحدهما سعد بن معاذ فهو باطل لا ينبغى ذكره إلا مقروناً ببيانه، ومما يدل على بطلان الحكاية المذكورة أن النبى صلى الله عليه

وسلم حضر دفن سعد بن معاذ كما ثبت فى الحديث الصحيح ، وأما قصة المقبورين ففى حديث أبى أمامة عند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : من دفن اليوم ههنا ؟ فدل على أنه لم يحضرهما اهـ .

واختلف فى هذين الشخصين : أهما مسلمان أم كافران ؟ فجزم أبو موسى المدينى بأنهما كانا كافرين ، واحتج بما رواه من حديث جابر بسند فيه ابن لهيعة أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على قبرين من بنى النجار هلكا فى الجاهلية فسمعهما يعذبان فى البول والنميمة ، قال أبو موسى : هذا وإن كان ليس يقوى لكن معناه صحيح لأنهما لو كانا مسلمين لما كان لشفاعته إلى أن تيبس الجريدتان معنى ، ولكنه لما رآهما يعذبان لم يستجز للطفه وعطفه حرمانهما من إحسانه فشفع لهما إلى المدة المذكورة وجزم ابن العطار فى شرح العمدة بأنهما كانا مسلمين ، وقال : لا يجوز أن يقال إنهما كانا كافرين لأنهما لو كانا كافرين لم يدع لهما بتخفيف العذاب ولا ترجاه لهما ولو كان ذلك من خصائصه لبينه يعنى كما فى قصة أبى طالب.

والذى نرجحه هو الرأى الثانى ، وهو أنهما كانا مسلمين ، وأما ما احتج به أبو موسى فهو ضعيف كما اعترف به ، ومما يؤيد أنهما مسلمان رواية ابن ماجة : مر بقبرين جديدين ، فانتفى كونهما فى الجاهلية ، وفى حديث أبى أمامة عند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم مر بالبقيع ، فقال : من دفنتم اليوم ههنا فهذا يدل على أنهما كانا مسلمين ؛ لأن البقيع مقبرة المسلمين والخطاب للمسلمين مع جريان العادة بأن كل فريق يتولاه من هو منهم ، ويقوى كونهما كانا مسلمين رواية أبى بكرة عند

أحمد والطبرانى بإسناد صحيح يعذبان وما يعذبان إلا فى الغيبة والبول ، فهذا الحصر ينفى كونهما كانا كافرين ، لأن الكافر وإن عذب على ترك أحكام الإسلام فإنه يعذب مع ذلك على الكفر بلا خلاف اهـ فتح .

أما أحد الرجلين فكان يمشى بالنميمة ، وهى نقل كلام الغير على جهة الإفساد ، فإن ترتب على فعل ذلك مصلحة أو درء مفسدة فليس حراماً ، والراجح أن النميمة كبيرة من الكبائر ؛ لما يترتب على القيام بها من الإفساد وقيل : إنها صغيرة ، وتصير كبيرة بالإصرار والمداومة ، وقد حذر الله تعالى من النميمة فى قوله :﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم ١٠، ١١] .

وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ، أى لا يجعل ساتراً بينه وبين بوله فلا يتحفظ منه ، وفى رواية « لا يستبرئ » ، أى لا يتوخى براءة المحل وتحصيل النقاء بعد فراغ البول ، وفى رواية « لا يتنزه » أى يبتعد ، وفى رواية « لا يتوقى » وكل الروايات قريبة المعنى مؤدية للغرض وهو : عدم التحفظ من البول .

وأجرى بعضهم الاستتار على ظاهره فقال : معناه لا يستر عورته ورد بأن التعذيب لو وقع على كشف العورة لاستقل الكشف بالسببية ولم يكن هناك اعتبار للبول ، فيكون العذاب على الكشف فحسب سواء وجد البول أو لم يوجد ، مع أن سياق الحديث يدل على أن البول بالنسبة إلى عذاب القبر خصوصية ، وروى عن أبى هريرة : « أكثر عذاب القبر من البول » أى بسبب ترك التحرز منه فاقتضى ذلك أن يحمل الاستتار على المجاز حتى تتفق جميع الروايات على هدف واحد معين ، ويؤيد ذلك ما فى

حديث أبى بكرة عند أحمد وابن ماجة : «أما أحدهما فيعذب فى البول»، ومثله للطبرانى عن أنس .

وفى وضع الرسول صلى الله عليه وسلم الجريد على القبر خلاف حاصله. قال بعض العلماء : محمول على أنه صلى الله عليه وسلم سأل الشفاعة لهما فأجيبت شفاعته بالتخفيف عنهما إلى أن ييبس الجريد .

وذكر الإمام مسلم رحمه الله فى حديث جابر فى صاحبى القبرين : فأجيبت شفاعتى أن يرفع ذلك عنهما مادام القضيبان رطبين .

وقيل : يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو لهما تلك المدة .

وقيل : لكونهما - يعنى الجريدتين - يسبحان ماداما رطبين ، وليس لليابس تسبيح ، وهذا الأخير هو ما نرجحه ؛ لثبوت التسبيح حقيقة فى كل شىء حى كما قال الله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء٤٤] وإلى هذا ذهب أكثر المفسرين ، قالوا : معناه وإن من شىء حى، ثم قالوا : حياة كل شىء بحسبه ، فحياة الخشب ما لم ييبس ، والحجر ما لم يقطع ، وذهب المحققون من المفسرين وغيرهم إلى أنه على عمومه رطباً كان أو يابساً ثم اختلف هؤلاء: هل يسبح حقيقة أم فيه دلالة على الصانع فيكون مسبحاً منزهاً بصورة حاله ؟ والمحققون على أنه يسبح حقيقة، وقد أخبر الله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة٧٤] وإذا كان العقل لا يحيل جعل التمييز فيها ، وجاء النص به وجب المصير إليه اهـ شرح النووى .

وخص الجريد لأنه بطىء الجفاف فتطول مدة التخفيف عنهما .

وورد فى بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى قطع الغصنين بيده وباشر غرسهما بنفسه ، وفى بعضها أنه أمر جابرا بذلك ، ويمكن الجمع بين الروايات المختلفة بتعدد القصة ويترتب على كل رواية حكم خاص بها ففى مباشرة الرسول صلى الله عليه وسلم للقطع والغرس تشريع للمسلمين ، ولهم فيه قدوة حسنة ، ويكون وضع الجريد مستحباً لتخفيف العذاب بسببه .

وأنكر بعض العلماء وضع الجريد على القبر ، وزعم أن الحادثة من خصوصيات الرسول صلى الله عليه وسلم . وأولوا معنى الوضع وتخفيف العذاب بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم مدة نداوة الجريد وليس فى الجريد ولا فى الرطب منه معنى خاص ، أو أنه خاص ببركة يده الشريفة كما قال الطرطوشى .

وقال المازرى : يحتمل أن يكون أوحى إليه أن العذاب يخفف عنهما هذه المدة و « لعل » للتعليل .

ونرجح القول بالوضع ، رجاء الرحمة وتخفيف العذاب فنحن مطالبون بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب٢١]، ويؤيد ما نرجحه أيضاً : ما أوصى به الصحابى الجليل بريدة بن الخصيت رضى الله عنه أن يجعل فى قبره جريدتان ، والصحابى أولى من غيره بالاتباع ، وبهذا يرد على من قال : إنها خصوصية .

وأما ما ذهب إليه الطرطوشى من أن ذلك خاص ببركة يد الرسول صلى الله عليه وسلم فيرد عليه بحديث جابر ، حيث أمره النبى عليه الصلاة والسلام بقطع الغصنين ، وإلقائهما ، ولم يفعل النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يباشره .

وأما ما ذهب إليه القاضى عياض من استنكاره لوضع الناس الجريد ، وعلل وضعهما على القبر بأمر مغيب ، وهو قوله : ليعذبان فيرد عليه : بأن عدم العلم بالعذاب أو عدمه لا يمنع من طلب التخفيف ومباشرة أسباب الرحمة لو عذب ، وهذا مثل الدعاء بالرحمة للميت فلا يمنع كوننا لا ندرى أرحم أم لا أن ندعو له بالرحمة .

ما يؤخذ من الحديث

١- ثبوت عذاب القبر ، وهو مذهب أهل الحق خلافاً للمعتزلة .

٢- استحباب قراءة القرآن عند القبر ؛ لأنه إذا كان يرجى التخفيف بتسبيح الجريد ، فتلاوة القرآن أولى .

٣- وجوب الاستبراء من البول ، والتحذير من ملابسته ، ويلتحق به غيره من سائر النجاسات فى البدن والثوب .

٤- يستدل بهذا الحديث على وجوب إزالة النجاسة خلافاً لمن خص الوجوب بوقت إرادة الصلاة .

٥- وجوب الاستنجاء ، لأنه إذا ثبت العذاب على عدم التحفظ من البول فعلى ترك الاستنجاء أولى .

٦- ثبوت نجاسة بول الحيوان قياساً على ذلك ، حيث ثبتت نجاسة الإنسان وهو أشرف من الحيوان ، لقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَم ﴾ [الإسراء٧٠] . فقياساً عليه تثبت نجاسة بول الحيوان من باب أولى ومن قال بطهارة مأكول اللحم من الحيوان لابد من دليل .

٧- غلظ تحريم النميمة ووجوب الابتعاد عنها ، وعمن يمشى بها كما قال تعالى : ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [ن١٠، ١١]

٨- استحباب وضع الجريد الأخضر على القبر رجاء تخفيف العذاب عن الميت .

٩- رأفة الرسول صلى الله عليه وسلم ورحمته بأمته ، وصدق الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨] .

١٠- مطالبة المسلم بالستر على أخيه المسلم « ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

❀❀❀

٤- حكم البول قائماً

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا يحيى بن يحيى التميمى أخبرنا أبو خيثمة عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فانتهى إلى سباطة قوم فبال قائماً فتنحيت فقال : أدنه فدنوت حتى قمت عند عقبيه فتوضأ فمسح على خفيه .

اللغة

(السباطة) بضم السين ، وتخفيف الباء هى الموضع الذى يلتقى فيه التراب والقمامة ونحوهما ؛ وتكون بفناء الدور مرفقاً لأهلها الخطابى : ويكون ذلك فى الغالب سهلاً منثالاً يحد فيه البول ولا يرتد على البائل .

قوله : « فانتهى إلى سباطة قوم » إضافة السباطة إلى القوم إضافة اختصاص لا ملك لقربها منهم .

المعنى

إن أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم لا تخلو من حكم تشريعية ، وفوائد دينية ، يقتدى بها المسلمون ، ويهتدون بهديها فى كل صغيرة وكبيرة ، وفى هذا الحديث يذكر حذيفة حالة من بعض الأحوال التى شاهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بيان بحكم من الأحكام ، وهو جواز البول قائماً ، وذلك أن حذيفة كان مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فانتهى إلى موضع بفناء الدور مما تلقى فيه القمامة ونحوها ، فبال قائماً ،

فتنحى حذيفة ، وفى فعله صلى الله عليه وسلم بيـان للجـواز لعـذر ، أمـا إذا لم يكن هناك عذر فيكـره البـول قائمـاً ، وهـى كراهـة تنزيـه لا كراهـة تحريم ، قال ابن المنذر : اختلفـوا فـى البـول قائمـاً فثبـت عـن عمـر ابـن الخطاب رضى الله عنه ، وزيد بن ثابت وابن عمر وسـهل بـن سـعد أنـهم بالوا قياماً ، وكرهه ابن مسعود والشعبى وإبراهيم بن سعد ، وكان إبراهيـم ابن سعد لا يجيز شهادة من بال قائماً وهناك قول ثابت : إنه إن كان فـى مكان يتطاير إليه البول شىء فهو مكروه ، وإن كان لا يتطاير فلا بـأس بـه وهو قول مالك. قال ابن المنذر : البول جالساً أحب إلى وقائماً مباح ، وكـل ذلك ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يعترض على هذا بأن البول يوهى الجدار ، وفى هذا العمل مـا فيـه من الأضرار ؟.

ويجاب على هذا بعدة وجوه :

أولاً : أن السباطة لم تكن مختصة بقوم معينين وإنما كـانت بفنـاء دورهـم وللناس جميعاً ، فأضيفت إليهم لقربها منهم .

ثانياً : أنه إنما بال فوق السباطة لا فى أصل الجدار وهو صريح رواية أبى عوانة فى صحيحه .

ثالثاً : يحتمل أن يكون علم إذنهم فى ذلك بالتصريح أو بما فى معناه .

رابعاً: أو لكونه مما يتسامح الناس به .

خامساً: أو لعلمه بإيثارهم إياه بذلك .

سادساً: أو لكونه يجوز له التصرف فى مال أمته دون غيره لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، قال فى الفتح : وهذا وإن كان صحيح المعنى لكن لم يعهد ذلك من سيرته ومكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم هـ.

وقد ذكر القاضى عياض رضى الله عنه سبب البول فى السباطة بأنه كان من الشغل بأمور المسلمين ، والنظر فى مصالحهم بالمحل المعروف ، فلعله طال عليه مجلس حتى حفزه البول فلم يمكنه التباعد ولو أبعد لتضرر .

واستدنى حذيفة ليستتر به عن الناس ، لأن هذه الحالة يستخفى بها ويستحيى منها فى العادة .

وهذا الحديث من الأحاديث التى حولها بعض الشبه ، وظن بعض الناس أنها تتعارض مع غيرها ، وقد دافع عن هذا ابن قتيبة رحمه الله فى كتابه : «تأويل مختلف الحديث » قال : قالوا: حديثان متناقضان ، رويتم عن عائشة أنها قالت « ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً قط [1] ، ثم رويتم عن حذيفة أنه بال قائماً[2] . وهذا خلاف ذاك ؛ قال أبو محمد . ونحن نقول : ليس ههنا بحمد الله اختلاف ولم يبل قائماً قط فى منزله والموضع الذى كانت تحضره فيه عائشة رضى الله عنها وبال قائماً فى المواضع التى لا يمكن أن يطمئن فيها إما للثق[3] فى الأرض وطين أو قذر ، وكذلك الموضع الذى رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

(٣) اللثق بالتحريك : الندى والبلل ، ويقال للماء والطين المختلطين ويقال للزج من الطين وهو الزلق .

حذيفة يبول قائماً كان مزبلة لقوم فلم يمكنه القعود فيه ولا الطمأنينة ، وحكم الضرورة خلاف حكم الاختيار اهـ .

هذا وقد وردت بعض آراء أخرى للعلماء منها :

١- أشار ابن حبان فى ذكر السبب فى قيامه عليه الصلاة والسلام فقال : لأنه لم يجد مكاناً يصلح للقعود ، فقام لكون الطرف الذى يليه من السباطة كان عالياً فأمن أن يرتد إليه شىء من بوله .

٢- وقيل : لأن السباطة رخوة يتخللها البول فلا يرتد إلى البائل منه شىء.

٣- وقيل : إنما بال قائماً ، لأنها حالة يؤمن معها خروج الريح بصوت ففعل ذلك لكونه قريباً من الديار ، ويؤيده ما رواه عبد الرزاق عن عمر رضى الله عنه قال: البول قائماً أحصن للدبر .

٤- وقيل : إن السبب فى ذلك ما روى أن العرب كانت تستشفى لوجع الصلب بذلك فلعله كان به ، وروى الحاكم من حديث أبى هريرة قال: إنما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً لجرح كان فى مأبضه - وهو باطن الركبة - فكأنه لم يتمكن لأجله من القعود ، ولكن ضعفه الدارقطنى والبيهقى .

٥- ويرى أبو عوانه فى صحيحه أن البول عن قيام منسوخ واستدل بحديث عائشة السابق .

وأرى : أن الحديث غير منسوخ ، وأن تأويل ابن قتيبة سليم ، وتوفيقه بين الخبرين يطمئن العقل إليه ، فإن السيدة عائشة رضى الله عنها إنما

استندت فى خبرها إلى مبلغ علمها ، وما كانت تراه من أحوالـه صلـى الله عليه وسلم فى البيوت ، وأما خارج البيوت فلم تطلع عليه ولم تره .

وقد رآه حذيفة وهو من كبار الصحابة ، وإضافة إلى ما أرجحه مـن رأى ابن قتيبة ، فإننى أرى أيضاً أن النبى صلـى الله عليـه وسـلم كـانت أكـثر أحواله وأدومها البول من قعود ، وأنه فعل ذلك لبيان الجواز ، وممـا يـدل على جواز البول من قيام : ما ثبت عن عمر وعلى وزيد بن ثـابت وغـيرهم أنهم بالوا قياماً ، وهو دال على الجواز من غير كراهة إذا أمن الرشاش .

ما يؤخذ من الحديث

١- جواز البول قائماً إذا أمن الرشاش ، وكان هناك عذر كما سبق بيانـه فى الشرح .

٢- جواز قرب الإنسان من البائل لستره ، واستحباب الستر.

٣- قال النووى : وفيه جواز البول بقرب الديار .

٤- إثبات المسح على الخفين وجوازه فى الحضر .

٥- يسر الدين الإسلامى وسماحته.

❁❁❁

٥- فضيلة الأذان والصف الأول

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك عن سمى مولى أبى بكر عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو علم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا . ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً».

اللغة

(لو يعلم الناس ما فى النداء) معنى النداء : الأذان ، وعبر بالمضارع فى موضع الماضى - إذ المعنى : لو علم - ليفيد استمرار العلم ، باستحضار صورة ما يترتب على الأذان من الفضل العظيم . و « ما » اسم موصول مفعول يعلم ، وما بعده وهو جملة الجار والمجرور صلة ، والمعنى : لو يعلمون ما فى النداء والصف الأول من الخير والبركة .

(ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه) مفعول « يجدوا » محذوف تقديره: ثم لم يجدوا مرجحاً ، والاستهام : هو الاقتراع ، والضمير فى عليه للمذكور من الأمرين وهما : النداء والصف الأول .

(التهجير) هو التبكير إلى الصلاة .

(ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً) العتمة : هى العشاء ومعنى لأتوهما : أى لأتوا المحل الذى يصليان فيه جماعة وهو المسجد . « ولو حبواً » الحبو : هو الزحف إذا منع مانع من المشى كما

يزحف الصغير أو مشياً على المرافق والركب ولابن أبــى شـيبة مـن حديـث أبـى الـدرداء ولـو حبـواً علـى المرافـق والركـب ، ونصـب لأنـه خـبر كـان المحذوفة مع اسمها والتقدير ولو كان الإتيان حبواً .

الشــرح

يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الأذان والصــف الأول توضيحـاً فيه ترغيب كامل وحث شامل ، للتنافس عليهما ، والتبكير بــهما ، وفـى ذلك فليتنافس المتنافسون ، فإن الفضل المنوط بهما لا يحده حد ، لو يعلمه الناس ثم لم يجدوا سبيلاً للحصول على هذا الأجر الكريم ، والفضل العظيم إلا أن يجروا القرعة بينهم لأجروها ، ولو يعلمون أيضاً مـا فـى التبكـير إلى الصلاة لتسابقوا عليه ولو يعلمـون مـا فـى العشـاء وصـلاة الصبـح لأتـوا إلى مكانهما فى المسجد ولو حبواً .

ولقد كان لهاتين الصلاتين هذا الفضل الكبير ، لما فيهما من المشقة على النفس ، وتخلص الإنسان من نومه وراحته ، فالأولى وهى العشــاء بالنسـبة لأول النوم ، والثانية وهى الصبح تكون بتخلص الإنسان مـن آخـر نومـه . ولذا فإنهما أثقل الصلاة على المنافقين .

وإذا نظرنا إلى الأذان ، وجدنا الكثير مـن الأحـاديث توضـح لنـا فضلـه وعظيم الثواب الذى يحصل عليه المؤذنون ، فهم أطـول النـاس أعناقـاً يـوم القيامة ، بكثرة الثواب ، وقد ورد أن المؤذن يغفر له مدى صوته ، ويصدقه كل رطب ويابس ، وكيف لا ، وهو الذى يردد كلمة التوحيد ، وتتجــاوب مع أصداء صوته قلوب المؤمنـين ، مسـتجيبة لنـداء ربـها ، مقيمـة للصـلاة فكيف إذن لا يتسابق المسلمون عليه؟ إنه لحـرى بـهم إذا تسـاووا فـى أداء الأذان وفى قوة الصوت والوقوف على الوقت أن يقترعوا فيما بينهم حرصـاً

على هذا الثواب الجزيل الذى أعده الله للمؤمنين ، وكذلك الحال بالنسبة للصف الأول الذى يلى الإمام إذا حضروا إليه جملة وضاق بهم ولم يتنازل بعضهم لبعض اقترعوا عليه ؛ وذلك لأن الصف الأول أقرب إلى مقابلة الفضل والتعرض لنفحات الله ، وكان أصحاب هذا الصف جديرين بمقام الصديقين ومهبط النفحات والفضل لما لهم من عناية تامة بأداء الصلاة على وقتها ، وهذا من أفضل الأعمال ولما تنطوى عليه قلوبهم من إخلاص النية لله تعالى ، والتبكير بالسعى إلى رحمته ورضوانه .

وفى التبكير إلى الصلاة ثواب كبير ، يسارع إليه صاحبه ، فيغمره الله تعالى برحمته . ولذا قال : « ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه».

قال الهروى وغيره : رخصة الخليل بالجمعة .

وقيل : المراد الإتيان إلى صلاة الظهر فى أول وقتها ، لأن التهجير مشتق من الهاجرة وهى وقت الظهر ، ولكن لا داعى لكل هذا التقدير والاشتقاق فإن المعنى الأول : وهو التبكير بالصلاة واضح وهو المراد من التهجير ، والمراد من الاستباق الذى حث عليه الحديث هو الإسراع بالصلاة، وتقديمها على كل ما سواها .

كما بيّن الحديث أيضاً قيمة صلاة العشاء والصبح فى جماعة بالمسجد ، ورغب فيهما بدرجة يتحمل معها المسلم كل المشقة ، ويستعذب فى سبيلها أقسى الصعوبات لما أعده الله من مثوبة وأجر لمن يقوم بأدائهما على أكمل وجه .

وقد ورد فى هذا الحديث تسمية العشاء « عتمة » مع أنه ورد النهى عن ذلك.

والجواب : أن كلمة العتمة هنا قد أطلقت على العشاء لدفع مفسدة وتحقيق مصلحة ، ذلك أن العرب استعملوا كلمة العشاء فى المغرب ، فلو

قال : لو يعلمون ما فى العشاء والصبح لحملوها على المغرب ففسد المعنى ولم يتحقق المراد فاستعمل كلمة العتمة التى يعرفونها ، ولا يشكون فيها ، وقواعد الشرع متظاهرة على احتمال أخف المفسدتين لدفع أعظمهما .

وكذلك : فإن فى هذه التسمية بياناً لجوازها ، وأن النهى ليس للتحريم، وهذا الحديث فى جملته يؤكد أهمية الصلاة والإعلام بدخول وقتها ، وإذا كان قد صرح بأهمية وقتين من أوقات الفروض وهما : العشاء والصبح لما فيهما من المشقة ، فإن مفهوم هذا أن غيرهما من الفروض الأخرى أولى بالسعى والاستباق عليها حيث لا مشقة كما هو الحال فى هذين الفرضين ، وبهذا تتضح أهمية الصلاة كركن من أركان الإسلام ، هو الصلة بين العبد وربه ، به يستعين الإنسان فى حياته كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ [البقرة ٤٥] وبه يتطهر من أدران الحياة ، وينتهى عن المنكر ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥]

ما يؤخذ من الحديث

١- إثبات القرعة فى الحقوق التى يتزاحم عليها الناس .
٢- فضل الأذان ، وعظم ثواب المؤذنين .
٣- فضيلة صلاة الجماعة وفضل أهل الصف الأول .
٤- الحث على أداء الصلاة على وقتها والتبكير بها .
٥- جواز تسمية العشاء « عتمة » .
٦- رأفة الرسول صلى الله عليه وسلم وحبه لأمته ، وما يرجوه لهم من الثواب الوفير .

٦- مشـروعـية الأذان

قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا محمود بن غيلان قال : حدثنا عبد الرازق قال :أخبرنا ابن جريج قال : أخبرنى نافع أن ابـن عمـر كـان يقول . كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينـون الصـلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوماً بذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثـل نـاقوس النصارى ، وقـال بعضـهم بل بوقـاً مثل قرن اليهود ، فقـال عمـر : أو لا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بلال قم فناد بالصلاة » رواه البخارى .

فى هذا الحديث مشروعية الأذان ، وهو شعيرة من شعائر الإسلام ، بها يكون إعلام المسلمين بدخول وقت الصلاة ، وبالأذان إظهار وإعلان للإسلام وشعائره ، وتعريف بدخول وقت الصلاة فيسارع المسلمون للصلاة ، ومن ثم كان المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ، وكـان مـن حـق المسـلمين أن يتسابقوا عليه ، ويفزعوا إليه كما جاء فى الحديث .

« لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » .

وابتداء الأذان كان بالمدينة بعـد الهجـرة ، والراجـح أن ذلـك كـان فـى السنة الأولى : وقيل كان فى السنة الثانية ومعلوم أن الصلاة كان قد فرضت قبل ذلك ـ ليلة الإسراء والمعراج ، وكـان المسـلمون يؤدونـها ، ولكـن بغـير أذان وذلك لأنهم قبـل الهجـرة لم تكـن ظروفـهم وأحوالهـم تسـمح بـإعلان

الشعائر وإظهارها ، فلما تمت الهجرة ، وقويت شوكة المسلمين واستقروا واطمأنوا بالمدينة ، كان تشريع الأحكام وإظهار شعائر الإسلام عندئذ استشارهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى شأن الوسيلة التى يعلنون بها عن الصلاة ، وما كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمسلمون ليوافقوا على الناقوس أو البوق فللإسلام شخصيته المتميزة التى لا يكون فيها تابعاً ولا مقلداً ، ولا سيما ما كان عليه اليهود والنصارى .

ولقصة الأذان روايات وطرق أكثر وضوحاً وتفصيلاً : عن محمدين بن إسحاق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه قال : لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يضرب بالناقوس وهو له كاره ، لموافقته النصارى طاف بى من الليل طائف وأنا نائم : رجل عليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس؟ يحمله قال : فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس قال : وما تصنع به ؟ قال: قلت : ندعو به إلى الصلاة قال: أفلا أدلك على خير من ذلك فقلت : بلى ، قال : تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الصلاة حى على الفلاح حى على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، قال : ثم استأخر غير بعيد قال : إذا أقمت الصلاة : الله أكبر الله اكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حى على الصلاة حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إن هذه

الرؤيا حق إن شاء الله ، ثم أمر بالتأذين ، فكان بلال مولى أبى بكـر يـؤذن بذلك ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة .

قال : فجاءه فدعاه ذات غـداة إلى الفجـر ، فقيـل لـه : إن رسـول الله صلى الله عليه وسلم نائم ، فصرخ بلال بـأعلى صوتـه : الصـلاة خـير مـن النوم ، فقال : سعيد بن المسيب فأدخلت هذه الكلمة فى التأذين إلى صلاة الفجر . رواه أحمد وأبو داود .. عن محمد بن عبد الله بن زيد عن أبيـه ، وفيه : «فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرتـه بما رأيت فقال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مـع بـلال فـألق عليـه مـا رأيت فإنه أندى صوتاً منك، قال : فقمت مـع بـلال فجعلـت ألقيـه عليـه ويؤذن به ، قال: فسمع ذلك عمر بـن الخطـاب رضـى الله عنـه وهـو فـى بيته؛ فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق لقد رأيـت مثـل الـذى رأى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد ، ومن هـذه القصـة ومن هذا الحديث الأخير وفى قوله «إنها لرؤيا حق » . ما يفيـد أن الأذان شرعى بالوحى ، لا بالرؤيا فحسب وقد توافقا ، ومن جهة أخـرى : فـإن من السنة تقرير النبى صلى الله عليه وسلم للبعض علـى أمـر مـن الأمـور ، فالسنة ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ، وفى هذا تقرير منه .

هذا وبالإضافة إلى رواية ابن جريج التى أوردها ابن هشـام فـى سـيرته، وفيها أن عمر لما جاء إلى النبى يخبره بما رأى قال له : « قد سبقك بذلـك الوحى».

وإنما جاء إعلام الناس بالأذان على غير لسانه صلوات الله وسلامه عليه، ليكون فى ذلك تنويه بمنزلته الكريمة ، ومكانته العظيمة ، وليكون فى ذلك رفع لذكره بلسان غيره ، فذلك أقوى لأمره ، وأعظم لشأنه .

وقد أشار القرآن الكريم إلى رفع ذكره عليه الصلاة والسلام فى قول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [سورة الشرح]

قال قتادة رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا منشد ولا صاحب صلاة إلا ينادى بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد اشتمل الأذان على مسائل العقيدة الإسلامية وأهم عناصرها رغم قلة ألفاظه وكلماته فى قول المؤذن « الله أكبر » ما يفيد وجود الله تبارك وتعالى، ويفيد كماله وعظمته وتنزيهه وتقديسه ، وأنه أكبر وأعظم من كل شىء ، وحقه مقدم على كل شىء فى الدنيا مهما كان غالياً أو عزيزاً على النفس.

وفى الشهادة الأولى : أشهد أن لا إله إلا الله ما يفيد توحيده سبحانه وتعالى ، ونفى الشريك ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لا شريك له فى ملكه ، بيده ـ وحده ـ مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير .

وفى الشهادة الثانية : وأشهد أن محمداً رسول الله ، إثبات الرسالة للرسول صلوات الله وسلامه عليه وهذا يستلزم اتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر٧] .

وفى قوله : حى على الصلاة ، دعوة إلى الإقبال عليها ، والفوز بها ، وتلبية لأمر الله ورسوله ، وهذه الدعوة إلى تلك الطاعة المخصوصة جاءت عقب الشهادة بالرسالة ، وذلك لأنها لا تعرف إلا من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفى قوله : حى على الفلاح ، دعوة للإقبال على الظفر بسعادة الدنيا والفوز بنعيم الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم ، وهذا الفلاح هو البقاء الدائم، وفى ذلك إشارة إلى المعاد . وللمؤذن مثوبة كبيرة وفضل وافر ، وجزاء عظيم وحسبه أن كل من يسمع نداءه يشهد له يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » . رواه البخارى .

ما يؤخذ من الحديث

١- مشروعية الأذان وفضله.

٢- شرع الأذان بالوحى لا بالرؤيا فحسب.

٣- للإسلام شخصيته المتميزة التى لا يكون فيها تابعاً.

٤- يؤذن للصلاة من هو أقوى وأندى صوتاً .



٧- إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول

قال الإمام مسلم رحمه الله: حدثنا محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبد الله بن وهب عن حيوة وسعيد بن أبى أيوب وغيرهما عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ صلاة صلى الله بها عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » . رواه مسلم .

إن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة ليجتمع المسلمون لأداء صلاتهم فى بيت الله تعالى ، جماعة ليزدادوا ثواباً على ثواب ، وينالوا فضيلة الصلاة على وقتها ، وفضيلة الصلاة فى جماعة التى تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة . وفى ترداد ألفاظ الأذان والاستجابة لنداء الحق ، وداعى الهدى فضل وافر ومكانة عالية لأن فى ذلك إظهارًا لشعائر الدين واستجابة لله تعالى، فالمسلم يردد خلف المؤذن ألفاظ الأذان، لكن إذا قال المؤذن « حى على الصلاة » قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ثم إذا قال المؤذن « حى على الفلاح » قال خلفه : لا حول ولا قوة إلا بالله ثم بعد الانتهاء من الأذان عليه أن يصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يسأل الله تعالى له الوسيلة والوسيلة : هى منزلة

فى الجنة فمن سأل للرسول صلى الله عليه وسلم الوسيلة حلت له شفاعته، أى وجبت أو نالته شفاعته ، فيستحب لسامع الأذان أن يقول مثل ما يقول المؤذن إلا فى حى على الصلاة وحى على الفلاح، وهاتان العبارتان يطلق عليهما لفظ الحيعلتين فإنه يقول فيهما : لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويستحب لسامع الأذان أن يصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فراغه من متابعة المؤذن ، كما يستحب سؤال الوسيلة .

ويستحب أن يقول بعد قوله : أشهد أن محمداً رسول الله : رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً . والأذان جامع لعقيدة الإيمان ويشمل على نوعية من العقليات والسمعيات فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها وذلك بقوله الله أكبر ثم صرح بإثبات الوحدانية ونفى ضدها ، ثم بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة ثم الدعوة إلى العبادة والصلاة ثم إلى الفلاح والبقاء فى النعيم المقيم .

والدعوة إلى الصلاة والفلاح وسؤال الوسيلة للرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء عقب الأذان مستجاب ومشروع وعبادة وتقرب إلى الله تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

ما يؤخذ على الحديث

١- شرف الأذان وفضيلة ترداده بعد الأذان .
٢- فضل الصلاة على الرسول عقب الأذان .
٣- الدعاء أرجى للقبول عقب الأذان .
٤- سؤال الله الوسيلة .

٨- أى الأعمال أفضل

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على ميقاتها ، قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك، رواه الطبرانى .

إن الصلاة أفضل الأعمال ثم يليها سلامة الناس من لسان الإنسان فإذا ما سلم الناس من ألسنة بعضهم عاشوا حياتهم آمنين .

ولقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم علامة المسلم أن يسلم الناس من لسانه ويده : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

إن آداب الحديث تتمثل فى المجالس الآمنة التى يسودها الصدق فى القول وحسن التفاهم والتعامل ، ولقد دعا الإسلام إلى التسامح وكظم الغيظ والعفو عن الناس وعن مقابلة السيئة بمثلها . ووضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن استقامة الإيمان ترتبط باستقامة القلب وأن استقامة القلب ترتبط باستقامة اللسان، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » رواه أحمد .

ولطالما وَجَّه الرسول صلوات الله وسلامه عليه أصحابه إلى كظم الغيظ وحسن الحديث وعدم مقابلة السيئة بمثلها . عن سعيد بن المسيب رضى

الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى أصحابه وقع رجل بأبى بكر فآذاه فصمت عنه أبو بكر ثم آذاه الثانية فصمت عنه ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر رضى الله عنه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر أوجدت على يا رسول الله ؟ قال « لا ولكن نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت ذهب الملك وقعد الشيطان فلم أكن لأجلس إذ قعد الشيطان » . رواه أبو داود .

ومن أهم الوسائل لصيانة الحديث عن الهوى والباطل تحريم الإسلام للجدل وفى الحديث : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » رواه البخارى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذى .

ويذكر عبد الله بن عباس جملة من الآداب مركزاً فيها على آداب الحديث كأسلوب للتعامل بين الناس وللتفاهم فيقول رضى الله عنه : خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة ـ أى الجيدة من الخيول ـ « لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رُبَّ متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعيب ، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يقليك وإن السفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنه مجاز بالإحسان ، مأخوذ بالإجرام » رواه ابن أبى الدنيا .

ومن أدب الحديث البعد عن لغو الكلام ، وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] ومن لغو القول ، ومما هو منهى عنه ، ما يحاول بعض الناس أن يتلفظوا به ليضحكوا الناس، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض وإن المرء ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه ، رواه البيهقى .

وآفة الآفات فى أحاديث الناس إنما هى تتمثل فى المراء والجدل ، يقول بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين ، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال : « مهلاً يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء فإن الممارى قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى إثمًا ألا تزال ممارِيًا، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة ، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة ، رياضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء » رواه الطبرانى .

وإذا حافظ الإنسان على لسانه فقد صان نفسه من الأخطاء والأخطار فإن الخطايا والأخطار إنما تأتى من جراء خطأ اللسان أو ارتكاب الفاحشة . عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة فقال رجل يا رسول الله ألا تخبرنا يا رسول الله ؟

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، فقال الرجل ألا تخبرنا يا رسول الله ؟ ثم قال رسول الله مثل ذلك أيضاً ثم ذهب الرجل يقول مثل مقالته فأسكنه رجل إلى جنبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة : ما بين لحييه وما بين رجليه» رواه مالك .

ما يؤخذ من الحديث

١- تفاضل الأعمال وأن الصلاة أفضلها .

٢- دعوة الحديث إلى سلامة الناس من اللسان .

❁❁❁

٩- أثر الصلاة الكاملة

قال الإمام مسلم : حدثنا عبد بن حميد وحجاج بن الشاعر كلاهما عن أبى الوليد قال عبد: حدثنا إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص حدثنى أبى عن أبيه قال: كنت عند عثمان فدعا بطهور فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » رواه مسلم .

فى هذا الحديث النبوى الشريف توضيح لمكانة فريضة الصلاة وأهميتها وأثرها عندما يؤديها المصلى بطهارة صحيحة ، ووضوء كامل يحسنه وبخشوع وخضوع . وسجود وركوع .. عندما يؤدى المصلى صلاته على هذا النحو ، يكون للصلاة أثرها فى تكفير الذنوب ما لم تؤت كبيرة من الكبائر، وذلك الدهر كله .

ويتضح لنا مكانة هذه الفريضة ومنزلتها الهامة عند الله سبحانه وتعالى، حيث فرضت فى السماء فقد استدعى الحبيب حبيبه وعرج به إلى السماوات حتى كان فى حضرته القدسية ليخاطبه مشافهة بهذا الأمر الهام وبتلك الفريضة المحبوبة ـ الصلاة ـ فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد فلا دين لمن لا صلاة له . روى الطبرانى فى الأوسط والصغير : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له ولا دين لمن لا صلاة له

إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » . وقد اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة ، والتحذير من تركها . فقد أمر الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت٤٥] كما جعلها أساساً أصيلاً من أسس التقوى تأتي مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشرة .

قال تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة٢، ٣] ويجعلها النبى صلى الله عليه وسلم الفاصل بين المسلم والكافر فيقول فيما رواه مسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » فليس غريباً أن يقول بعض الأئمة بكفر تاركها ويقول آخرون بفسقه ويخشى عليه ترك الإيمان : قال عليه الصلاة والسلام فى حديث الإسراء :

« فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمي وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى فيقع دماغه جانبا وتقع الصخرة جانبا ، ولما سأل عن ذلك قيل له : أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلوات لغير مواقيتها فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار . إذن فللصلاة أهميتها البالغة . ومكانتها التى لا تطاولها مكانة فهى أول ما يسأل عنه العبد ، ويحاسب عليه يوم القيامة بل إنها الميزان الصحيح الذى توزن به سائر الأعمال فحيث كانت الصلاة صالحة ومقبولة صلح سائر العمل وحيث كانت غير صالحة فسد سائر العمل إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتكف صاحبها عن الشرور وتسمو به حيث الرضا والكمال، أما من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له لأنه لم

يستكمل عبادتها ولم تكن إقامته لها صالحة ومستقيمة وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه حقيقة الصلاة كميزان للأعمال : عن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط .

وعلامة الصلاة المقبولة أن يؤديها صاحبها متواضعاً فيها لعظمة ربه الكبير ولم يستطل على أحد من خلق الله فهو ينتظم في صفوف الطائعين غير مصر على معصية وإنما يحيا في ذكر الله ويتعاطف مع عباد الله ولقد جاء في حديث يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه وتعالى : « إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي ولم يبت مصرًا على معصيتي وقطع النهار في ذكري ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب» .

وتتضح ثمرة الصلاة المقبولة بنهيها صاحبها عن الآثام وتكفيرها للخطايا فبالصلاة تتزكى الروح ويتطهر القلب من غفلات الهوى وأدران الخطايا، قال عليه الصلاة والسلام: « أرأيتم لو أن نهراً على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا: لا، قال: كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» فهي إذن طهارة للإنسان وبراءة من الذنوب وإطفاء مما يحترق به الإنسان من المعاصي، يتضح هذا مما رواه ابن مسعود: « تحترقون فإذا صليتم الصبح غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ثم تحترقون فإذا صليتم العشاء

غسلتها ثم تنامون فلا تكتب عليكم حتى تستيقظوا » ويروى عن سلمان الفارسى أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابساً فهزه حتى تحات ورقه ثم قال : يا سلمان ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق ثم تلا الآية الكريمة ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيْ النَّهَار وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَـنَاتِ يُذْهِبْـنَ السَّـيِّئَات ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود ١١٤] .

وللصلاة أثرها الإيجابى فى حياة المؤمن فهى لقاء روحى خصب يقف فيه بين يدى الرحمن الرحيم فى مناجاة عذبة يتلقى شحنات روحية تدخله فى رحاب الرضا والقبول ، قال تعالى فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى قسمين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل حمدنى عبدى فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال الله هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله هذا لعبدى ولعبدى ما سأل» .

والصلاة مع هذا كله نظافة للبدن والثوب والمكان ورياضة للجسم والروح والعقل فهى إذن قوة روحية وبدنية وخلقية ، أليست بهذا كله جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات؟ بلى إنها لجديرة أن تفرض فى الليلة المباركة ليلة الإسراء والمعراج فهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

ومن ثمرات الصلاة التى يجنيها المؤمن أن فيها متنفساً للمتعبين والمنكوبين فإذا استعان الواحد منهم بالصبر والصلاة وجد الله تعالى معه وقد نادى الله تعالى عباده المؤمنين .﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة١٥٣] وقال تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة٤٥، ٤٦] ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة فهى مرفأ الراحة والطمأنينة ومنزل الأمن والسكينة بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخوف ومواقف الهوى والخمول ففيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشر وعلاج للنفوس المناعة للخير حين يكون﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج٢٠-٢٣] .

والمصلى لابد أن يكون فى صلاته مستحضراً كل أحاسيس الخشوع لأنه إنما يقف بين يدى الحضرة الإلهية فى دائرة الرحمة والفيض الإلهى فلا ينبغى له أن يكون من المرائين أو الساهين فإن هؤلاء قد توعدهم ربهم على عدم إخلاصهم فى صلاتهم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون٤، ٧] .

ويحث الإسلام مقيم الصلاة بالانتظام فى سلك المجتمع وألا يعيش فى عزلة عن الناس فأمر بأداء الصلاة فى جماعة وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين مرة بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم هَمَّ أن يحرق على قوم بيوتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات .

روى مسلم عن ابـن مسعود قـال : مـن سره أن يلقـى الله غـداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن فإن الله تعالى شـرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى وإنكم لو صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتـم سـنة نبيكم لضللتم وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمـد إلى المسـجد مـن هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجـة ويحط بها سيئة ولقد رأيتنا ومـا يتخلـف عنـها ـ أى صـلاة الجماعـة ـ إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين يسندانه لمرضه حتى يقام فى الصف » .

ما يؤخذ من الحديث

١- فضل أداء الصلوات المكتوبة فى أوقاتها .

٢- أثر إحسان الوضوء والخشوع فى الصلاة .

٣- الصلاة الصحيحة الكاملة بوضوئها وخشوعها كفارة للذنوب الصغائر.

❁❁❁

١٠- فضل صلاة الجماعة

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا عبد الله بن يوسف قال : أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الأعوج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده ، لقد هممت أن آمر بحطب ليحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء » رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقسم بهذا القسم وهو قوله « والذى نفسى بيده « ومعناه أن أمر نفوس العباد بيد الله سبحانه وتعالى ، بتقديره وتدبيره « لقد هممت » اللام واقعة فى جواب القسم ، والهم هو العزم، وقيل هو دون العزم .

وفى رواية الإمام مسلم ، ما يوضح لنا سبب ورود هذا الحديث ، فعند مسلم أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناساً فى بعض الصلوات فقال: لقد هممت ومعنى قوله « يحطب » يكسر ليسهل اشتعال النار به ، وبعد أن يشعل النار يأتى إلى جماعة من خلفهم ، وقال الجوهرى: خالف إلى فلان أى أتاه إذا غاب عنه أو تخلف عن الصلاة إلى قصدى المذكورين ، وقد قيد الحديث الرجال ليخرج النساء والصبيان ، والمراد بقوله فأحرق عليهم بيوتهم التكثير فى التحريق فليست العقوبة مقصورة على المال، بل المراد

تحريق المقصودين والبيوت ولذا قال : « عليهم » ثم أعاد القسم مرة ثانية « والذى نفسى بيده » وفى هذه الإعادة للقسم مبالغة فى اليمين وتأكيد له « لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً» والعرق هو العظم بلا لحم « أو مرماتين » تثنية مرماة : وهى ما بين ظلفى الشاة وقيل سهم الهدف وفى هذا دلالة واضحة لذم أولئك المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشىء الحقير من المطعومات مع تفريطهم فيما يحصل من رفيع الدرجات، كل هذا توجيه لفضل صلاة الجماعة وما لها من عظيم الثواب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه اللهم صل عليه اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم فى صلاة ما انتظر الصلاة » رواه البخارى .

والحديث الذى نحن بصدد شرحه استدل له البعض على أن صلاة الجماعة فرض عين لأنها لو كانت سنة لم يهدد تاركها بالتحريق ، ولو كانت فرض كفاية لكانت قائمة بالرسول ومن معه ، وظاهر نص الشافعى أنها فرض كفاية وعليه جمهور المتقدمين من أصحابه وقال بذلك كثير من الحنفية والمالكية، والمشهور عند الباقين أنها سنة مؤكدة ، وأجيب على ظاهر الحديث بأجوبة كثيرة منها أنه هَمَّ ولكن لم يفعل ، ولو كانت فرض عين ما هَمَّ بتركها إذا توجه للمخالفين، وأن المراد بالحديث المبالغة ، وأنه صلى الله عليه وسلم ترك تحريقهم بعد التهديد ، فلو كان واجباً ما عفا

عنهم ، ومن الأجوبة على الحديث أنهم قوم تركوا الصلاة رأساً لا مجرد الجماعة ، ومن الأجوبة أن الحديث ورد فى حق المنافقين ، وقال الحافظ ابن حجر : والذى يظهر لى ، أن الحديث ورد فى المنافقين ، لقوله فى صدر الحديث الآخر «ليس صلاة أثقل على المنافقين من العشاء والفجر » لكن المراد به نفاق المعصية لا نفاق الكفر .

ما يؤخذ من الحديث

١- فضل صلاة الجماعة وأنها فرض كفاية كما عند الشافعى وغيره، وقيل فرض عين وقيل سنة مؤكدة والأرجح الأول .

٢- التحذير من ترك الصلاة بصفة عامة ، وصلاة الجماعة بصفة خاصة.

❁❁❁

١١- من أركان الإسلام

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال : «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان، قال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ، فلما ولى قال النبى صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» . رواه البخارى .

فى هذا الحديث يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً من أهل البادية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يوجهه إلى ما يدخله الجنة من العمل فقال له : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً .

والعبادة هى الطاعة الكاملة مع الخضوع لله سبحانه وتعالى وحده وإذا كان المراد بالعبادة معرفة الله والإقرار بوحدانيته فعلى هذا يكون عطف الصلاة والزكاة والصوم لإدخالها فى الإسلام، وإن كان المراد بالعبادة الطاعة مطلقاً فيدخل فيها جميع أركان الإسلام ويكون عطف الصلاة والصيام والزكاة من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيهاً على شرفه ومزيته.

وإنما ذكر قوله « ولا تشرك به شيئاً » بعد العبادة لأن الكفار كانوا يعبدونه سبحانه فى الصورة ويعبدون معه أوثاناً يزعمون أنها شركاء فنفى هذا .

وإنما اقتصر على الصلاة والصيام والزكاة لكونها من أركان الإسلام وأظهر شعائره والباقى ملحق بها وقيَّد الصلاة بالمكتوبة لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء١٠٣] وجاء فى الأحاديث وصفها بالمكتوبة وقيد الزكاة بالمفروضة وهى المقدرة احترازاً من الزكاة المعجلة قبل الحول فإنها زكاة وليست مفروضة، وقيل إنما فرق بين الصلاة والزكاة فى التقييد لكراهة تكرار اللفظ الواحد أو احتزازاً عن صدقة التطوع فإنها زكاة فى اللغة .

وفى إقامة الصلاة قولان : أحدهما : أداؤها والمحافظة عليها ، والثانى: إتمامها على وجهها ، وفى قوله وتصوم رمضان حجة لمذهب الجمهور وهو المختار أنه لا كراهة فى قول رمضان من غير تقييد بالشهر خلافاً لمن كره ذلك وقول الأعرابى والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا أى على المفروض أو على ما سمعت منك لأنه كان وافدهم، وفى رواية مسلم زيادة أبداً ولا أنقص . فلما أدبر الأعرابى قال النبى صلى الله عليه وسلم: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» أى إذا داوم على ما أمر به .

وقد ورد فى أحاديث أخرى زيادة بعض أمور مثل صلة الرحم وذلك كما فى حديث الأعرابى الذى رواه مسلم فى صحيحه ، قال :

حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا موسى بن طلحة قال: حدثنى أبو أيوب أن أعرابياً عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يا محمد : أخبرنى بما يقربنى من

الجنة وما يباعدنى من النار ، قال: فكف النبى صلى الله عليه وسلم ثم نظر فى أصحابه ثم قال : لقد وفق أو لقد هدى قال : كيف قلت ؟ قال : فأعاد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتصل الرحم . دع الناقة » .

ما يؤخذ من الحديث

١- أن المبشر بالجنة أكثر من عشرة وعلى ذلك فتحمل بشارة العشرة على أنهم بشروا دفعة واحدة أو أن العدد لا مفهوم له .

٢- الاكتفاء بفعل الواجبات لما كان حديث عهد بالإسلام لتأليفه فإذا انشرح صدره للإسلام وتعاليمه حرص على ثواب المندوبات لأن تركها نقص فى الدين بل إن تركها تهاوناً ورغبة عنها فسق.

٣- أهمية دعائم الإسلام والمحافظة عليها خاصة توحيد الله والصلاة والزكاة والصيام .

٤- توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم وحكمته العالية فى التبليغ ودعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

❁❁❁

١٢- سترة المصلى وحكم المرور أمامه

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك عن أبى النضر عن بسر بن سعيد أن زيد بن خالد الجهنى أرسله إلى أبى جهيم يسأل ماذا سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المار بين يدى المصلى ، قال أبو جهيم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمر بين يديه ، قال أبو النضر : لا أدرى قال أربعين يوماً أو شهراً أو سنة».

اللغة

« لو يعلم المار بين يدى المصلى » : أى لو علم المار أمام المصلى .. وإنما عبر بالمضارع استحضاراً للصورة ، فيشير بهذا إلى أن الحكم إنما يكون على من علم بإثم المرور أمام المصلى ، وعلم بتحذير الإسلام عنه ، ومع هذا يمر أمام المصلى .

« ماذا عليه » هذه الجملة تتكون من مبتدأ هو « ما » الاستفهامية وخبر هو « ذا » وهى اسم موصول ، وهذه الجملة فى محل نصب سدت مسد مفعولى « يعلم » والمعنى : لو يعلم المار أمام المصلى ما الذى عليه من الذنب.

« لكان أن يقف » هذه الجملة جواب « لو » ،وقال الكرماني : جواب لو ليس هو المذكور ، بل التقدير لو يعلم ما عليه لوقف أربعين ولو وقف أربعين لكان خيراً له ، أى أن جواب « لو » على هذا محذوف تقديره : «لوقف » وهذه الجملة المذكورة : « لكان أن يقف » جواب « لو » المحذوفة، والتقدير : ولو وقف لكان وقوفه أربعين خيراً له ، و« خيراً » بالنصب خبر كان ، واسمها هو المصد المؤول من أن والفعل ، وهناك رواية للترمذى برفع «خير » وعلى هذا فتكون اسم كان ، وخبرها جملة « أن يقف » والذى سوغ الابتداء بالنكرة كونها موصوفة، ويحتمل أن يكون اسمها ضمير الشأن والجملة الواقعة بعد ذلك هى خبر كان ، وأفعل التفضيل ليس على بابه ، والمراد بقوله « خيراً له » أنه لو خير بين أن يقع فى إثم المرور أو الوقوف هذه المدة المذكورة لاختار أخف الأمرين وهو الوقوف ؛ فإن مشقته تعتبر يسيرة إذا قيست بالعذاب الذى يستحقه المار بين يدى المصلى .

المعنى

للصلاة حرمتها وقداستها ، فهى لقاء مع الله سبحانه ، ينبغى على المصلى أن يستحضر ما يقوم به للقاء ربه ، من تسبيح وتحميد ، وتكبير وتمجيد ، وخشوع وخضوع كما ينبغى عليه أن يحافظ على سمت هذه العبادة ووقارها والحفاظ على جلالها وكمالها ، ولذا حرم على المصلى إتيان أى عمل أجنبى عن الصلاة لأنه يبطلها ، فلا يصح للمصلى فعل ما ليس من الصلاة من قول أو عمل أو فكر أو أكل أو شرب وما إلى ذلك . بل عليه أن يتجه بكليته إلى الله مولياً وجهه شطره منصرفاً بكليته إليه ، فهو

فى حضرته وفى مناجاة معه ؛ ولهذا فإنه يندب للمصلى أن يجعل أمامه سترة ، وهى نحو ثلثى الذراع ،ويكفى أن يقيم المصلى أى شىء أمامه ، ولو مؤخرة الرحل ، وهى أقل شىء يكون فى السترة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا وضع أحدكم بين يديه مثل مؤخرة الرحل فليصل ولا يبالى مَنْ مر وراء ذلك» ومؤخرة الرحل : هى العود الذى فى آخر الرحل ، أو الخشبة التى يستند إليها الراكب .

وقد اشترط الإمام مالك رحمه الله : أن يكون الساتر فى غلظ الرمح ، وذهب القاضى عياض إلى أن الخط أمام المصلى لا يكفى مستدلاً بحديث : « إذا وضع أحدكم بين يديه مثل مؤخرة الرحل .. » قال : وإن كان قد جاء به حديث ، وأخذ به أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فهو ضعيف واختلف فيه فقيل : يكون مقوساً كهيئة المحراب ، وقيل : يكون قائماً بين يدى المصلى إلى القبلة ، وقيل : من جهة يمينه إلى شماله ، قال : ولم ير مالك رحمه الله تعالى ولا عامة الفقهاء الخط ، وحديث الخط الذى رواه أبو داود فيه ضعف واضطراب ، واختلف فيه قول للشافعى وقال جمهور أصحابه باستحبابه .

الحكمة فى السترة :

والحكمة فى السترة بين يدى المصلى تنحصر فى أمرين :

الأول : كف البصر عما وراءه ، فهى تحدد للمصلى المنطقة المعينة التى يصلى فيها ، وفى نطاق الحيز الذى أخذه من مساحة المكان لا يمتد بصره ، ولا يشغله شاغل ما ، فينحصر تفكيره ، ويتحدد موقفه للعبادة فحسب ، وفى هذا كمال للخشوع ، وصيانة لهيبة

الصلاة ووقارها وخشوع المصلى وخضوعه فيها حتى يفوز بالفلاح كما قال تعالى :﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون ١، ٢]

الثانى : منع من يجتاز بقربه ، ففى السترة علامة تشير إلى من يحاول اجتياز المكان عن قرب ، بما يقوم فيه صاحبه من عبادة ، فيمتنع المار عن المرور بقربه ، ويمر بعيداً عنه بعد الساتر . فتصان به حرمات الفروض ، ويمتنع الجميع من المرور والتعرض لإحداث الخلل فى صلاة المصلى ، ولكن بم تحدد مسافة المرور أمام المصلى؟

اختلف الفقهاء فى تحديد المسافة التى يحرم المرور فيها أمام المصلى إلى ما يأتى :

١- فعند الإمام مالك بقدر مساحة ركوع المصلى وسجوده وبحيث لو مر أمامه أحد يستطيع أن يدفعه .

٢- وعند الإمام الشافعى ، قدر ثلاثة أذرع وهو قول الإمام أحمد أيضاً.

٣- وقيل : إذا مر بينه وبين مكان سجوده .

٤- وقيل : ستة أذرع .

والسترة مشروعة عند الجميع بلا خلاف ، إذا كان المصلى فى موضع لا يأمن المرور بين يديه ، أما إذا كان فى موضع يأمن المرور بين يديه فقد اختلفوا فيها ، وهما قولان فى مذهب مالك ، أما مذهب الشافعية ، فهى مشروعة مطلقاً فى جميع الأحوال ؛ وذلك لعموم الأحاديث الواردة فى شأنها.

حكم المرور أمام المصلى :

يحرم المرور أمام المصلى ؛ لورود النهى والوعيد الشديد ، وفى التعبير بقوله : « لو يعلم المار » ما يشير إلى أن التحريم خاص بمن يعلم الحكم وارتكب هذا الفعل ، وحكم التحريم للمار أمام المصلى هو نفس الحكم لمن وقف أو جلس أمامه ، إن كانت العلة فيه التشويش على المصلى ، بل قد يكون الوقوف أو الجلوس أمام المصلى أكثر ضرراً ؛ لما قد يلحقه من التشويش أو اللغط الذى يسيء إلى المصلى ، وإذا صلى إلى سترة فله أن يمنع غيره من المرور بين السترة وبينه ، أما إذا لم يكن أمامه سترة أو كانت السترة أمامه ولكنه تباعد عنها فى الصلاة ، فقيل : للمصلى أن يمنع المار بين يديه ، والأصح أنه ليس له منعه ؛ لتقصيره . قال النووى : ولا يحرم حينئذ المرور بين يديه لكن يكره . اهـ .

وقد يكون المرور أمام المصلى غير محرم ، ولا مكروه ، وذلك إذا كان بعذر وتأويل صحيح كأن يجد فرجة فى الصف الأول فله أن يمر بين يدى الصف الثانى ، ويقف فى تلك الفرجة لتقصير أهل الصف الثانى بتركها .

وقد قسم بعض فقهاء المالكية أحوال المار والمصلى فى الإثم وعدمه إلى أربع صور :

الصورة الأولى : أن يصلى إلى سترة فى غير طريق مشروع وللمار مندوحة ، فيأثم المار دون المصلى .

الصورة الثانية : إذا كان المصلى فى طريق مسلوك ، بغير سترة أو كان أمامه سترة ولكنه بعيد عنها ، ولا يجد المار مندوحة فيأثم المصلى دون المار.

الصورة الثالثة : إذا كان المصلى فى طريق مسلوك بغير سترة أو كان أمامه سترة ، ولكنه بعيد عنها ، وللمار مندوحة ، فيأثم كل من المصلى والمار .

الصورة الرابعة : أن يصلى إلى سترة فى غير طريق مشروع وليس للمار مندوحة فلا يأثم المصلى ولا المار.

والظاهر من الحديث أنه يحرم المرور أمام المصلى مطلقاً ولو لم يجد مسلكاً ، بل على المار أن يقف حتى ينتهى المصلى من صلاته ، ويدل على هذا ما روى عن أبى صالح السمان قال : رأيت أبا سعيد الخدرى فى يوم جمعة يصلى إلى شىء يستره من الناس ، فأراد شاب من بنى أبى معيط أن يجتاز بين يديه ، فدفع أبو سعيد فى صدره . فنظر الشاب ، فلم يجد مساغاً إلا بين يديه فعاد ليجتاز فدفعه أبو سعيد أشد من الأولى ، فقال من أبى سعيد ، ثم دخل على مروان فشكا إليه ما لقى من أبى سعيد ، ودخل أبو سعيد خلفه على مروان ، فقال : ما لك ولابن أخيك يا أبا سعيد ؟ قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إذا صلى أحدكم إلى شىء يستره من الناس فأراد أحد أن يجتاز فليدفعه فإن أَبَى فليقاتله فإنما هو شيطان ، وليس المراد حقيقة المقاتلة، فإنها أشد على الصلاة من المرور ، وإنما المراد : المدافعة بلطف كأن يسبح أو يشير للمار ، ومعنى « فإنما هو شيطان » أى يفعل فعل الشيطان من التشويش على المصلى، قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون المعنى : فإنما الحامل له على ذلك الشيطان ، ومما يؤيد هذا ما رواه مسلم : « فإن معه القرين» .

وهل الأمر بمنع المرور والمقاتلة لخلل يقع فى الصلاة بسبب المرور ؟ أم أنه لدفع الإثم عن المار ؟.

مال الحافظ ابن حجر إلى الثانى ، والذى نراه : هو أنه لا مانع من الأمرين معاً فان إثم المار أمام المصلى محقق ، وقد يترتب على المرور ما يضر بصلاة المصلى أو بكمال خشوعه لله .

وفى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم المار بين يدى المصلى» تخصيص لليدين ، لكون أكثر الأعمال تقع بهما .

وفى قوله : « لكان أن يقف أربعين » فيه إبهام للمعدود تفخيماً للأمر وتعظيماً ، والظاهر أنه عين المعدود ولكن الراوى شك فيه ، ولعل تحديد الأربعين ؛ لأنها الغالب فى أطوار الإنسان من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، وورد فى بعض الروايات « مائة عام » فى مسند البزار لكان أن يقف أربعين خريفاً ، فقيل : إن العدد لا مفهوم له والمقصود منه المبالغة فى ذلك ، ورأى بعضهم: أن التقييد بالمائة وقع بعد التقييد بالأربعين زيادة فى تعظيم الأمر على المار ، وزيادة فى تأكيد النهى عن المرور بكل ما يمكن من الزجر لينتهى عن ذلك.

ما يؤخذ من الحديث

١- منزلة الصلاة فى الإسلام ، وما لها من حرمة وعظمة .

٢- الحث على كمال الخضوع فى الصلاة .

٣- تأكيد النهى عن المرور أمام المصلى ، وعن كل ما يترتب عليه الانشغال عن كمال الصلاة فى خشوع وخضوع .

٤- مشروعية اتخاذ السترة أمام المصلى ، وأن يكون قريباً منها ، وهذا فى حق المنفرد ، والإمام ، أما بالنسبة للمؤتمين فحكى بعض العلماء

الإجماع على أنه لا يلزم فى حقهم سترة ؛ لأن سترة إمامهم سترة لهم، أو لأن إمامهم نفسه سترة لهم .

٥- عظم إثم المار بين يدى المصلى ، وأن هذا المرور لا يبطل الصلاة .

٦- أن المؤاخذة نتيجة العلم بالحكم .

٧- توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى ما فيه صلاح دينها وآخرتها ، والتحذير من الاستهانة بشأن فريضة الصلاة .

٨- جواز استعمال كلمة « لو » فى باب الوعيد وليس فى هذا ما يتعارض مع ما ورد من النهى عن استعمالها ؛ لأن النهى عن استعمال « لو » إنما هو خاص فيما كان فيه اعتراض على المقدور .

٩- فى الحديث دلالة على قبول خبر الواحد .

❊❊❊

١٣- مكفرات الذنوب

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى : حدثنى أبو الطاهر وهرون بن سعيد الأيلى قالا : أخبرنا ابن وهب عن أبى صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر، وفى نسخة : « إذا اجتنبت الكبائر » رواه مسلم . قبل أن أتناول شرح هذا الحديث ، أحب أن أشير إلى أن اسم أبى صخر الذى ورد فى إسناد هذا الحديث هو حميد بن زياد، وقيل : حماد بن زياد ويقال له أبو صخر الخراط صاحب العباء المدنى سكن مصر .

وفى هذا الحديث بيان لأثر الصلوات الخمس والجمعة وصيام شهر رمضان فى تكفير الذنوب التى تحدث بين الصلوات أو الجمع أو رمضان ورمضان ، والمراد بتكفير ما بينهن تكفير الذنوب التى تحدث بين الصلاة التى يصليها العبد والتى بعدها بشرط أن تكون كاملة وبوضوء كامل، ففيما رواه مسلم ـ بسنده ـ عن حمران مولى عثمان قال : أتيت ابن عفان بوضوء ثم قال : إن ناساً يتحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث لا أدرى ما هى ، إلا إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئى هذا، ثم قال: من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة .

وروى مسلم أيضاً بسنده عن حمران أنه قال : فأيما توضأ عثمان قال : والله لأحدثكم حديثاً . والله لولا آية فى كتاب الله ما حدثتكموه ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يتوضأ رجل فيحسن

وضوءه ثم يصلى الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة التى تليها »، وقال عروة الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة١٥٩] إلى قوله ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ أى أن الصلاة المكفرة للذنوب هى الصلاة الصحيحة الكاملة فى خشوعها وخضوعها ووضوئها وطهارتها ، والمراد بالصلوات الخمس هى المفروضة من صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الجمعة وصيام رمضان .

كما أن المراد بالطهارة التى بها تكفر الذنوب هى التى كتبها الله وفرضها فمن اقتصر فى وضوئه على طهارة الأعضاء الواجبة وترك السنن والمستحبات كان له هذا الفضل والغفران وحصلت له تلك الفضيلة وإن كان الذى يأتى بالسنن يكون أكمل وأشد فى التكفير والغفران .

وقال الإمام النووى رحمه الله : إذا كفر الوضوء فماذا تكفر الصلاة وإذا كفرت الصلاة فماذا تكفر الجمعات ورمضان وكذلك صوم يوم عرفة كفارة سنتين ويوم عاشوراء كفارة سنة وإذا وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه ؟ والجواب ما أجاب به العلماء أن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير فإن وجد ما يكفره من الصغائر كفره وإن لم يصادف صغيرة ولا كبيرة كتبت به حسنات ورفعت به درجات وإن صادفت كبيرة أو كبائر ولم يصادف صغيرة رجونا أن يخفف من الكبائر، وفى قوله إذا اجتنبت الكبائر شرط للتكفير وبيان بأن المراد بها الذنوب الصغائر ، أما الكبائر فلابد لتكفيرها من التوبة النصوح ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء ٣١]

ما يؤخذ من الحديث

فى الحديث دلالة على جواز قول رمضان من غير إضافة شهر إليه . وفيه فضل الصلوات الخمس والجمعة وفضل صيام رمضان فى غفران الذنوب ، والحث على اجتناب الذنوب والبعد عن الكبائر.

١٤- أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة

روى البخارى ومسلم من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة ».

وسبب ورود هذا الحديث : ما أسنده ابن ماجة فى سننه والترمذى فى الشمائل من حديث عبد الله بن سعيد قال :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيهما أفضل الصلاة فى المسجد، قال: ألا ترى إلى بيتى ما أقربه من المسجد: فلأن أصلى فى بيتى أحب إلى من أصلى فى المسجد إلا « أن تكون صلاة مكتوبة » .

وضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث فضل الصلاة ومكانة النافلة ومنزلتها ، وأن الأفضل بالنسبة لها أن يصليها الإنسان فى البيت وأما الفريضة فالأفضل صلاتها فى المسجد ، ففى المسجد يحظى من يصلى الفرض بالجماعة ، وواضح أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ ـ أى الفرد ـ بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة .

وفى المسجد أيضاً يحظى من يحافظ على الصلاة المفروضة بكثرة الخطى إلى المساجد ، وفى كثرة الخطى إلى المساجد زيادة فى الدرجات وتكفير للسيئات ، ومضاعفة للحسنات وإقامة شعائر الإسلام .

ولقد اتجه أحد الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أيهما أفضل الصلاة فى بيتى أو الصلاة فى المسجد؟ فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : ألا ترى إلى بيتى ما أقربه من المسجد فلأن أصلى فى بيتى أحب إلى من أصلى فى المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة،

أى مفروضة ، فوضح الرسول صلى الله عليه وسلم للسائل أن بيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع كونه قريباً إلى المسجد ومع كونه ملاصقاً له ومجاوراً مع هذا فهو يحب أن يصلى النافلة فيه أكثر وأشد حباً من صلاتها فى المسجد ، وما من شك فى أن صلاة النافلة فى المسجد أو فى البيت صحيحة ولا شيء فيها ولكنها فى البيت أفضل لتكون الصلاة أبعد عن الظهور وعن الرياء ، ولتتمحض نية المصلى فيها خالصة لله وحده كما قال تعالى :﴿ قُلْ إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام١٦٣] .

وفى صلاة النافلة فى البيت تعرض البيت وأهله للرحمات والعبادات حتى لا تخلو البيوت من ذكر الله ومن العبادة كما ورد فى الحديث « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » رواه مسلم .

كذلك فإن الصلاة فى البيت تضفى خيراً عليه لما رواه مسلم ـ بسنده ـ عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رضى أحدكم الصلاة فى مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته فإن الله جاعل فى بيته من صلاته خيراً « . فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الصلاة فى البيوت وعدم جعلها كالقبور مهجورة من الصلاة ـ والمراد بالصلاة ـ كما سبق ـ صلاة النافلة.

ويقول الإمام النووى رحمه الله تعالى وإنما حث على النافلة فى البيت لكونه أخفى وأبعد عن الرياء وأصون من المحبطات وليتبرك البيت بذلك وتنزل فيه الرحمة والملائكة وينفر منه الشيطان كما جاء فى الحديث وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الرواية الأخرى : « فإن الله جاعل فى بيته من صلاته خيراً ».

ويدعو الإسلام إلى ذكر الله تعالى فى البيت وألا يترك بدون ذكر وصلاة، لأنه حياة روحية للبيت ومن فيه ، عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «مثل البيت الذى يذكر الله فيه والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت». رواه مسلم .

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم إلى استقبال اليوم بالنشاط والوضوء والصلاة . عن أبى هريرة رضى الله عنه يبلغ به الرسول صلى الله عليه وسلم : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام بكل عقدة يضرب: عليك ليل طويل فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة فإذا صلى انحلت العقد فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان» . رواه مسلم .

وهكذا يتضح لنا الهدى النبوى الحكيم فى الصلاة والعبادات والتقرب إلى الله تعالى بنشاط وارتياح .

وصلاة النافلة فى البيت تكون أفضل سواء كانت راتبة وهى التى مع الفروض قبلها أو بعدها ، أو كانت نافلة مطلقة غير راتبة كالنوافل التى هى من شعائر الإسلام ، كالعيد وصلاة الشكر ، وصلاة الاستسقاء والتراويح على الأصح فإنها مشروعة فى جماعة فى المسجد ، والاستسقاء فى الصحراء ، وكذا العيد إذا ضاق المسجد .

ما يؤخذ من الحديث

١- فضل صلاة الفريضة فى المسجد .

٢- الأفضل فى صلاة النافلة أن تكون فى البيت .

٣- الدعوة إلى الإخلاص فى العبادة والبعد عن الرياء .

١٥- فضل صلاة الجمعة

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ،ثم راح فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، وإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » رواه البخارى ومسلم .

فى هذا الحديث توضيح لفضل التبكير والذهاب لحضور صلاة الجمعة والتطهر والاغتسال قبل الذهاب إليها ، وقد قال الحافظ ابن حجر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « غسل الجنابة » إنه نعت لمصدر محذوف : أى غسلاً كغسل الجنابة ، ومعنى « قَرَّب بدنة » : أى تصدق بها متقرباً إلى الله تعالى ، والمراد بالبدنة : البعير ذكراً كان أو أنثى .

وفى قوله : « وإذا خرج الإمام » استنبط منه الماوردى أن التبكير لا يستحب للإمام ويدخل للمسجد من أقرب أبوابه إلى المنبر .. ويمكن الجمع بين الأمرين بأن يبكر ولا يخرج من المكان المعد له فى الجامع إلا إذا حضر الوقت أو يحمل على من ليس له مكان معد ، وفى رواية ابن ماجة : « فمن جاء بعد ذلك فإنما يجىء لحق الصلاة » .

وفى هذا الحديث بيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مراتب الناس فى الفضل بحسب أعمالهم ، وأن القليل من الصدقة غير محتقر فى الشرع ، فما دام صاحبه يقدمه مخلصاً فيه فإن الله تعالى يقبله ، ولا يكلفه مالا طاقة له به ، والقليل مع الاستمرار خير من الكثير مع عدم الاستمرار.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالاغتسال والتطهر ليوم الجمعة ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » . رواه البخارى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب بينما هو قائم فى الخطبة يوم الجمعة إذ جاء رجل من المهاجرين الأولين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فناداه عمر : أية ساعة هذه ؟ قال : إنى شغلت فلم أنقلب إلى أهلى حتى سمعت التأذين ، فلم أزد على أن توضأت فقال: والوضوء أيضاً ؟ وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل » . رواه البخارى .

وهكذا يتضح لنا أن ليوم الجمعة من الفضل والمكانة ما ينبغى على المسلم أن يتهيأ له بالطهارة والنظافة ، ويلبس أحسن الثياب والتعطر والتبكير ، لملاقاة المسلمين ، والاجتماع بهم وزيادة التقرب والعبادة والدعاء، فهو أرجى للقبول فى يوم الجمعة ، لما فى هذا اليوم من ساعة إجابة وقبول منحها الله تعالى لهذه الأمة وإن كان لم يرد تحديدها ليشغل العبد سائر اليوم بالعبادة والدعاء والاجتهاد ، فهو خير يوم طلعت فيه الشمس ويكره صيامه منفرداً دون أن تكون هناك عادة كمن يصوم يوماً ويفطر يوماً فصادف يوم صيامه يوم الجمعة أو نحو ذلك ، وإنه ليوم مبارك فيه الموعظة والقبول والخير لدنيا الناس وآخرتهم .

ما يؤخذ من الحديث

فضل يوم الجمعة ، واستحباب الاغتسال يومها وفضيلة التبكير بالذهاب إلى الصلاة .

١٦- لا تحل الصدقة لغنى

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى ». رواه أبو داود والترمذى .

فى هذا الحديث الشريف توضيح لبعض من لم تجز له الصدقة وهو الغنى وذو المرة وهى القوة والشدة ، ومعنى « سوى » صحيح الأعضاء ، وهكذا حرم الإسلام الصدقة على القادر الذى يكون سليم الأعضاء قوى البنية متمكناً من العمل .

نعم قد يكون قوياً فى الظاهر إلا أنه غير مكتسب ، أو عجز عن العمل فعندئذ يقوم المجتمع الإسلامى بحاجته ، وقد جاء رجلان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فيهما البصر وخفضه فرآهما جلدين قويين فقال : « إن شئتما أعطيتكما ، ولا حظ فيها لغنى ولا قوى مكتسب » رواه النسائى وأبو داود .

ولقد حدد الله تعالى الجهات التى تصرف فيها الزكاة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة٦٠] .

وأول مصارف الزكاة : الفقراء ، والفقير من له أدنى شىء .

والثانى : المساكين، والمسكين من لا شىء له وقيل بالعكس .

وهذان النوعان هما أكثر الأنواع وجوداً ، وقلَّ أن يخلو منهم مجتمع من المجتمعات ، ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام يشجع على البطالة وعدم

الكسب اعتماداً على مال الزكاة وكما يفعله بعض المحترفين مـن المتسـولين القادرين ، وإنما حرم الإسلام الصدقة على القادر الذى يكون سليم الأعضاء كما سبق .

والصنف الثالث : هم العاملون عليها : وهم الذين يقومون بجمع الزكاة ممن وجبت عليهم وكان هذا النظام موجوداً فى صـدر الإسـلام الأول فكـان العاملون عليها يأخذون جزاء عملهم من مال الزكـاة إلا أن هـذا النـوع غـير موجود ولكن حكمه باق، ويمكن تنفيذه إذا عاد نظـام جمـع الزكـاة ويعـين لهذا العمل بعض الناس .

والنوع الرابع : المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين دخلوا الإسلام ولكن إيمانهم ضعيف ، ويخشى عليهم أن يرتـدوا عـن الإسـلام فـهؤلاء يعطـون لتـأليف قلوبهم وتثبيتهم على الدين ، كما يمكن أيضاً أن يصـرف هـذا السـهم فـى عصرنا الحاضر للنهوض بالدعوة إلى الإسلام .

والنوع الخامس : « وفى الرقاب » أى فـى العتـق وتحريـر الرقـاب ، فعلى المسلمين أن يعطوهم من مال الزكاة لإعانتهم علـى التحريـر أو لشـراء بعض الرقاب لعتقها أو لإعانة من يحتـاج منـهم إلى الإعانـة مـن المكـاتبين حتى يستطيعوا الوفاء بأقساطهم قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُـونَ الْكِتَـابَ مِمَّـا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيـهِمْ خَـيْرًا وَآتُوهُـم مِّـن مَّـالِ اللهِ الَّـذِي آتَاكُمْ﴾ [النور٣٣] .

والنوع السادس : الغارمون وهم الذين لحقتهم ديون بسبب إصلاح ذات البين أو تعطل بعض أعمال هامة لهم كان فيها نفع للأمة كالعمل التجارى أو الصناعى مثلاً وتعذر عليـهم الوفـاء بتلـك الديـون بشـرط ألا تكـون فـى معصية الله أو بسبب فساد أخلاقهم وإلا فلا يعطون منها .

والنوع السابع : فى سـبيل الله ، وهـو يتضمـن الجـهاد وإعـداد العـدة

وتجهيز الجيوش ويدخل تحت كلمة فى سبيل الله أيضاً بناء المساجد وإصلاحها وبناء المدارس وبناء المستشفيات وغير ذلك من المنافع العامة التى تكون خالصة لله وفى سبيل الله .

النوع الثامن : ابن السبيل : وهو الذى انقطع فى سفره عن بلده وأصبح بعيداً أو غريباً واحتاج إلى المال ليتم مهمته ويرجع إلى بلده ، ويلاحظ فى الآية الكريمة التى بينت مصارف الزكاة أن دائرة الاستحقاق فيها على نوعين:

الأول : نوع يعطى الزكاة فينفقها على حسب ما يراه وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون وابن السبيل .

والثانى : فى المصالح العامة التى يستفيد بها الناس وهى المذكورة فى قوله ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة ٦٠] .

هذه هى مصارف الزكاة، ومن حق المتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم أو أن يقتصر على صنف منهم ، قال العلامة أبو السعود: لأن اللام - أى فى قوله - إنما الصدقات للفقراء .. لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لإثبات الاستحقاق، وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم، وعند الشافعى لا يجوز إلا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف ..

ما يؤخذ من الحديث

١- لا تجوز الصدقة لغنى ولا لقوى سليم الأعضاء .

٢- لا يجوز دفع الزكاة إلا فى مصارفها .

٣- دعوة الإسلام إلى العمل ومقاومة البطالة.

١٧- ثمرة الحج والعمرة

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة». رواه الترمذى وصححه ورواه أحمد والحاكم.

يوضح هذا الحديث ثمرة الحج والعمرة ، وأهمية المتابعة بينهما بحيث إذا حج المسلم فعليه أن يعتمر ، وإذا اعتمر فعليه أن يحج ، ومن أهم ثمرات الحج والعمرة أنهما ينفيان الفقر والذنوب ، وذلك لخاصية علمها الشارع ، أو لأن الغنى الأعظم هو الغنى بطاعة الله تعالى ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم : كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، قال العلماء فى هذا التشبيه : مثل بذلك تحقيقاً للانتفاء ، لأن الحج جامع لأنواع الرياضات من إنفاق المال وجهد النفس بالجوع والعطش والسهر واقتحام المهالك ، ومفارقة الأوطان ومهاجرة الإخوان والخلان .

« وليس للحجة المبررة ثواب إلا الجنة » أى لا يقتصر صاحبها من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه بل لابد أن يدخل الجنة مع السابقين . وقال صلى الله عليه وسلم : « تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة ما بينهما تزيد فى العمر والرزق ، وتنفى الذنوب من بنى آدم كما ينفى الكير خبث الحديد » والمراد بزيادة العمر والرزق أن يبارك الله فيهما ، وذلك لأن هذه العبادة تجمع أنواع الرياضات الكثيرة ، والعبادات المتنوعة .

وهكذا ترى أن الله تعالى قد أكرم حجاج بيته وزواره وعماره ، بالعزة فى الدنيا والآخرة ، فإنه يمهد لهم أسباب الرزق ويفتح أبواب الخير فينفى الفقر والذنوب . كما جعل النفقة فى الحج مثل النفقة فى سبيل الله عن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله ، الدرهم بسبعمائة ضعف ».

ولتلك الأسرار الكريمة ، والمثوبة البالغة التى تتضمنها تلك الفريضة كان على المسلم أن يتحرى بكل دقة وأمانة المال الحلال الذى لا تشوبه أدنى شائبة أو أقل شبهة حتى يكون مقبولاً .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله فى الغرز فنادى : لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك، زادك حلال ، وراحلتك حلال ، وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز ، فنادى لبيك ، ناداه مناد من السماء لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور » .

ومن خلال مناسك الحج تنبثق الروحانيات الكريمة التى تشع فى قلب المؤمن معانى سامية وإشراقات تبعث الراحة والأمانة والطمأنينة والانشراح، إنه من أول لحظة يحرم فيها ويصيح ملبياً ربه سبحانه فقد دخل فى المناجاة الطيبة واستجاب بتلبيته إلى نداء ربه سبحانه وتعالى ، إذ يقول : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج٢٧] فهو يتجرد من لباس الدنيا وزينة الحياة وزخرفها ، ويلبس إزاره ورداءه وينتظم فى تلك الصفوف مع المسلمين الذين ارتدوا جميعاً هذا اللباس الواحد فى هيئة بيضاء واحدة ، لا

فرق بين غنى أو فقير ولا بين رئيس ومرءوس فالكل سواء ، ضمتهم وحدة دينهم فى مظهرهم وفى مخبرهم وفى دعائهم ، ونداء قلوبهم وهى تجأر بنداء واحد فى وقت واحد لرب واحد سبحانه وتعالى .

فليس عجيباً أن يحظى حجاج بيت الله بهذا الجزاء الوافر وبتلك السعادة الغامرة .

ما يؤخذ من الحديث

١- المتابعة بين الحج والعمرة .

٢- من ثمرات الحج والعمرة غفران الذنوب والبركة فى الرزق .

٣- إكرام الله تعالى لحجاج بيته بجنة تجرى من تحتها الأنهار .

❁❁❁

١٨- عناية الإسلام بتولية المناصب

عن يزيد بن أبى سفيان قال : قال أبو بكر حين بعثنى إلى الشـام : يـا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكـثر مـا أخـاف عليك بعدها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمـر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحدًا محاباة فعليـه لعنـة الله لا يقبـل الله منـه صرفـاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » رواه الحاكم .

فى هذا الحديث الشريف دلالة صريحة وواضحة على أن الإسـلام ديـن ودولة ، وعبادة وعمل ، يعنى بعدالة الحكم ، ويرسى قواعـد الأمانـة فـى تولية المناصب ، والقيام بكبار الأعمـال . فيوضـح الرسـول صلـى الله عليـه وسلم أن من ولى من أمر المسلمين شيئاً فـأمر عليـهم أحـداً ، لا لكفاءتـه ولا لأمانته ، ولا لتفوقه فى العمل الـذى رشـحه لـه وإنمـا قلـده إيـاه محابـاة لقرابة، أو طمعاً فى جمع بطانة معينة من المقربين إليـه أو لأنـه أهـدى لـه بعض الهدايا أو نحـو ذلـك مـن الأمـور التـى جعلتـه يؤخـر أهـل الجـدارة والاستحقاق والكفاءة ويقدم غيرهم من الذين يجيدون فن التسلق للمناصب ، وينشدون المنافع الخاصة ، من قلد مثل هـؤلاء فعليـه لعنـة الله كمـا أخـبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى أنه يطرد من رحـمـة الله تعـالى، وفـى قوله صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شـيئاً» بيـان لسائـر الأعمال وجميع المناصب لأن كلمة « شىء » نكرة تعم كل ما يتولاه النـاس من أعمال ومناصب فى الحياة فى سائر قطاعات المجتمع وشرائحه صغيرة كانت أو كبيرة، وهذه اللعنة والطرد من رحمة الله ستدركه فى الدنيـا قبـل الآخرة ؛ لأنه ظالم ، والظالمون وعد القرآن بخراب بيوتهم ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل٥٢] ومهما جمعوا من مال فى الدنيا فنهايته أليمة وعاقبته وخيمة .

وأما فى الآخرة فيدخله الله جهنم وبئس المصير ، إن تولية العاجزين وتنحية القادرين أهل الكفاءة خيانة وأن المحاباة فى ترقية الأدنى أو تقليده منصباً ليس أهلاً له وإنما لرشوة أو هوى أو قرابة أو أنه من ذويه أو جيرانه أو من بلده أو نحو ذلك من الأمور، خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» رواه الحاكم .

إن مظاهر الخراب والخيانة والفساد والضياع التى تنذر بالنهاية وتكون فى آخر الزمان أن يوسد الأمر إلى غير أهله ، فقد جاء رجل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : متى تقوم الساعة ؟

فقال له : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة .

فقال : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » رواه البخارى .

كما حذر الإسلام القائمين على الأعمال من ترك حاجات الناس وإهمال حقوقهم، فقال صلى الله عليه وسلم : « من ولى شيئاً من أمور المسلمين لم ينظر الله فى حاجته حتى ينظر فى حوائجهم » رواه الطبرانى .

ما يؤخذ من الحديث

١- العناية بتحرى الحق والعدل .
٢- مقاومة الإسلام للمحاباة والمحسوبية .
٣- دعوة الإسلام إلى تخير الرجل الصالح للمنصب الملائم .

١٩- أمة لا تنافق

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان « رواه الإمام أحمد فى مسنده ، عن عمر رضى الله عنه .

يوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذا الحديث ، نوعاً من أشد الأنواع التى يخافها على أمته وهو قول كل منافق عليم اللسان أى كثير علم اللسان جاهل القلب والعمل ، يتخذ العلم حرفة يتأكل بها وأبهة يتعزز بها، يدعو الناس إلى الله ويفر هو منه ، كما قال المناوى رحمه الله .

إن المنافقين أشد أعداء الإسلام خطراً ، لأنهم يتسترون ، ويظهرون خلاف ما يبطنون ، وفيما أخرجه الطبرانى عن على رضى الله عنه : « إنى لا أتخوف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً ، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون » .

نعم إن المؤمن يحجزه إيمانه ، فيثوب إلى رشده ، وإذا مسه طائف من الشيطان تذكر ، فآب إلى الهدى والصواب، وأما المشرك فواضح أنه يشرك، وأما المنافق فهو خفى عن الأعين يظهر للناس خلاف ما يخفيه فى سريرته ، فقد يأمنه الناس بينما هو يكيد لهم ، ويزداد خطره حين يتعلم علماً ، فيجيد بالعلم وينحرف به ، طلباً لأعراض الدنيا كما قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»
رواه أبو داود .

وقد حذر الإسلام من اتخاذ العلم مباهاة ومفاخرة على الناس ، أو اتخاذه وسيلة ذات قوة فعالة ومنطق غلاب فى المحاورة والشغب ، أو فى الانحراف به ، كانحراف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وحذر الإسلام من استغلال العلم فى غير موضعه ، حتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا تماروا به السفهاء ولا تخيروا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار » رواه ابن ماجة .

وإن المنافق المتعالم الفصيح اللسان يمارى بالباطل ويجادل ، ولذا نبه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحذر أمته - وهو الرؤوف الرحيم بها - حذرها من كل منافق عليم اللسان ، لأنه بما لديه من قول وتعبير وبعض من علم يستطيع أن يلبس الأمور ، ويخلط الباطل بالحق ويمارى ويجادل، روى بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم قالوا: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين ، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال: « مهلاً يا أمة محمد ، إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى ، ذروا المراء فان الممارى قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى إثماً ألا تزال ممارياً ، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة رياضها

ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ، ذروا المراء فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء » رواه الطبرانى .

وهكذا يتضح لنا من هذا الهدى النبوى الحكيم عطف الرسول صلى الله عليه وسلم وحبه لأمته ، وتحذيره لها من أعمال المنافقين أهل اللسان والشغب الذين يلبسون الأمور ، ويختلقون ويشغبون . إن الإسلام ينشد من أتباعه أن يكونوا حريصين فطنين وأن يعيشوا متعاونين على البر والتقوى بعيدين عن الإثم والعدوان .

ما يؤخذ من الحديث

١- التحذير من النفاق قولاً وعملاً .

٢- المنافق المتعالم أشد المنافقين خطراً .

٣- حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته وحبه لها .

❁❁❁

٢٠- الشــائعــات
وعقوبة الذين يرددونها فى الإسلام

عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى صــلى الله علــيه وسلم قــال : « من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ليعيبه به ، حبسه الله فى نار جهنم حتــى يأتى بنفاد ما قال به » رواه الطبرانى .

وفى رواية : « أيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهــو منــها بـرىء يشينه بها فى الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاد ما قال ».

إن الإسلام يصون حرمات الناس ، ولا يبيح بحال من الأحوال الاعتـداء عليها ، ولما كانت بعض النفوس التـى طبعـت علـى الشـر وعلـى البـهتان تبهت الناس ، وتحاول ـ بغياً وحسداً ـ أن تلصــق بـهم التـهم ، وتعيبـهم وتشينهم ، فقد لاحق الإسلام بتوجيهاته الحاسمة أولئك الباغين الظالمين .

ووضح الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن من يؤذى أخـاه المسلم بهذا النوع ، ويقذفـه بمـا هـو بـرىء منـه ، تكـون عقوبتـه أليمـة ، ونهايته وخيمة ، حيث يحبسه الله فى نـار جـهنم حتـى يـأتى بنفـاد مـا قال، وأنَّى له أن يأتى بنفاد ما قاله ؟ إن الذى قال بهتان وافتراء ، وكذب وضلال ، فكيف يستطيع إذن أن يثبت هذا البهتان ؟ .

كما وضـح القـرآن الكريـم نهايـة أولئـك المعتديـن علـى حرمـات النـاس وأعراضهم ويحاولون إشاعة قالة السوء ، وإشاعة الفاحشـة والبـهتان على

الأبرياء يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النور ١٩] .

ولا يشين الأبرياء ويلصق التهم بهم ويقذفهم بألسنة حداد إلا أهل الخبث والدناءة من المنافقين ، ولهؤلاء أعد الله تعالى عقوبة عاجلة فى الدنيا وأخرى آجلة يوم القيامة ، قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب٥٨].

ولما كان الاعتداء على حرمات الشرفاء جريمة منكرة ، ولما كان أثرها سيئاً فى تغيير الحقائق وتشويهها ، وتجريح الأبرياء نظر إليها الإسلام على أنها أربى الربا وأخطر الجرائم ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :

« أتدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله رسوله أعلم ، قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب ٥٨] .

إن أهل البهتان هم الذين يلصقون بالشرفاء النقائص ويبهتونهم بما ليس فيهم، وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رذيلة البهتان وفرق بينها وبين الغيبة ، ليتحاشى الصادقون فى إيمانهم مثل هذه الرذائل .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : ذكرك أخاك بما

يكره ، قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» رواه مسلم .

إن الإسلام هو دين الأدب العالى الرفيع ومكارم الأخلاق لا يرضى لأتباعه أن يسيء أحدهم إلى الآخر ، ولا يقبل أن ينتهك أحدهم حرمة أخيه أو يقع فى عرضه ، فإن حدث كانت العقوبات الرادعة فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت ٤٦] .

ما يؤخذ من الحديث

١- تحريم الغيبة والبهتان .

٢- محاربة الإسلام للشائعات وقالة السوء .

٣- النهى عن إساءة المسلم لأخيه .

❊❊❊

٢١- مطـل الغـنى ظـلم

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قـال : « مطل الغنى ظلم فإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع » رواه البخارى .

الإسلام ديـن الحـق والأمانـة ، يـأمر بـأداء الأمانـات إلى أهلـها، قـال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء٥٨] .

وخير المسلمين أحسنهم قضاء، أما المماطلة فى أداء الحقوق فـهى ظلـم، وهذا الحديث يوضح فيه رسول الله صلـوات الله وسـلامه عليـه بـأن مطـل الغنى ظلم، والمطل: المدافعة، والمراد هنا تأخير ما استحق أداؤه بغير عذر.

واختلف فى تعريف الغنى ،ولكـن المـراد بـه هنـا مـن قـدر علـى الأداء فأخره ولو كان فقيراً ، وهل يتصف بالمطل مـن ليـس القـدر الـذى اسـتحق عليه حاضراً عنده ، لكنه قادر على تحصيله بالتكسب مثلاً ؟

لقد أطلق أكثر الشافعية عدم الوجوب ، وصرح بعضهم بالوجوب مطلقاً، وفصل آخرون بين أن يكون أصل الدين وجب بسبب يعصى به فيجب وإلا فلا .

وعند الجمهور أن قوله : « مطل الغنى ظلم » من إضافة المصدر للفـاعل والمعنـى علـى هـذا أنـه يحـرم علـى الغنـى القـادر أن يمطـل بـالدين بعــد استحقاقه بخلاف العاجز ، وقيل : هو من إضافة المصدر للمفعـول والمعنـى أنه يجب وفاء الدين ولو كان مستحقه غنياً ، ولا يكون غناه سـبباً لتأخـير

حقه عنه ، وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى ، والأصح ما ذهب إليه الجمهور وهو الرأى الأول .

ولقد دعا الإسلام إلى الوفاء بالديون وإلى أدائها ، وإلى أخذها بالحق وعقد النية على أدائها ، إذ أن من انعقدت نيته على الوفاء والأداء أقدره الله تعالى، وأدى الله عنه ، روى البخارى ـ بسنده ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله ».

وفى هذا علم من أعلام النبوة لما يرى بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين . وقيل : المراد بالإتلاف عذاب الآخرة .

قال ابن بطال : فيه الحض على ترك استشكال أموال الناس والترغيب فى حسن التأدية إليهم عند المداينة وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل، وفيما رواه ابن ماجة والحاكم من رواية محمد بن على عنه أنه كان يستدين فسئل ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ».

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع» إشارة إلى الحوالة ، وهى ـ عند الفقهاء ـ نقل دين من ذمة إلى ذمة ويشترط فى صحة « الحوالة » رضا المحيل وهذا الشرط متفق عليه ولا خلاف فيه، كما يشترط عند الأكثر رضا المحتال ، وأما المحال عليه فلا يشترط إلا عند بعض من شذ فاشترط رضاه ، كما يشترط تماثل الحقين فى الصفات ، وأن يكون فى شىء معلوم ، ومنهم من خصها بالنقدين ، ومنعها فى الطعام : لأنه بيع طعام قبل أن يستوفى .

ومعنى « وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع » أى إذا أحيل فليحتل .

والأمر فى قوله « فليتبع .. » للاستحباب عند الجمهور ، ووهم من نقل فيه الإجماع ، وقيل هو أمر إباحة وإرشاد وهو شاذ .

وقال الحافظ ابن حجر : ادعى الرافعى أن الأشهر فى الروايات : « وإذا أتبع» وأنهما جملتان لا تعلق لإحداهما بالأخرى ، وزعم بعض المتأخرين أنه لم يرد إلا بالواو ، وغفل عما فى صحيح البخارى هنا فإنه بالفاء فى جميع الروايات وهو كالتوطئة ، والعلة لقبول الحوالة ، أى إذا كان المطل ظلماً فليقبل من يحتال بدينه عليه ، فإن المؤمن من شأنه أن يحترز عن الظلم فلا يمطل ، وفى بعض الروايات الأخرى عند البخارى ومسلم « ومن أتبع » بالواو ، ومناسبة الجملة التى قبلها لما دل على أن مطل الغنى ظلم عقبه بأنه ينبغى قبول الحوالة على الملىء ؛ لما فى قبولها من دفع الظلم الحاصل بالمطل ، فإنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل ، ففى قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم .

ما يؤخذ من الحديث

١- دعوة الإسلام إلى أداء الحقوق والأمانات .

٢- النهى عن المماطلة فى أداء الحق .

٣- تحذير الغنى المماطل.

٤- مشروعية الحوالة فى الإسلام .

٥- كف المسلم لأخيه عن الظلم .

٢٢- وكونوا عباد الله إخوانا

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره ، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم .

فى هذا الحديث تخلية ـ أولاً ـ عن بعض الرذائل ، ثم تحلية بأخوة الإسلام ، التى تقتضى عدم الظلم وعدم الخذلان وعدم تكذيب المسلم لأخيه، أو احتقاره .

أما النهى الأول : فهو عن التحاسد ، أى لا يحسد بعضكم بعضاً ، والحسد فى طبائع النفوس البشرية غير المستقيمة ، إذ أن تلك النفوس تكره أن يفوقها أحد من جنسها فى شيء من الفضائل ، فهى تتمنى زوال النعمة عن الغير . وقد وردت الاستعاذة من الحسد فى القرآن الكريم ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق ٥] .

والحسد كان ذنب إبليس ، عندما حسد آدم عليه السلام لما رآه قد فاق الملائكة ، بأن الله خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه فى جواره ، فمازال إبليس يحاول إخراجه من الجنة حسداً ، حتى أخرجه منها ، ولقد وصف الله ـ جلت حكمته ـ اليهود بالحسد ،

إذ يقول سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة ١٠٩] ، قال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء٥٤]

وأما **النهى الثانى** : فهو عن التناجش « ولا تناجشوا » والنجش يكون فى البيع وذلك بأن يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها . إما لنفع البائع لزيادة الثمن له ، أو بإضرار المشترى بتكثير الثمن عليه ، ففى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النجش ، واختلف العلماء فى البيع الذى يكون فيه نجش ، فمنهم من قال : إنه فاسد وهو رواية عن أحمد اختارها طائفة من أصحابه ، ومنهم من قال : إن الناجش هو البائع أو من واطأه البائع على النجش فقد فسد ، لأن النهى هنا يعود إلى العاقد نفسه ، وإن لم يكن كذلك لم يفسد لأنه يعود إلى أجنبى .

ثم نهى عن « التباغض « فالمؤمنون إخوة عليهم أن يتحابوا ولا يتباغضوا ، قال عليه الصلاة والسلام : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » أخرجه مسلم .

وقد امتن الله تعالى على عباده المؤمنين بتأليفه بين قلوبهم وذكرهم بهذه النعمة ، ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل عمران ١٠٣] نعم ، فالتأليف بين القلوب ، ومحبة الناس بعضهم لبعض نعمة عظيمة تتم بها سعادتهم وهناءتهم . قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي

أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُم ﴾ [الأنفال ٦٢،٦٣] .

ثم نهى عن « التدابر » والتدابر هو القطيعة والهجران وهو حرام فلا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث ، فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجر » رواه أبو داود .

ثم نهى عن أن يبيع الإنسان على بيع أخيه « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » ومن العلماء من قال : إن النهى للتنزيه ، والصحيح الذى عليه الجمهور أن النهى للتحريم ثم يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بقوله « وكونوا عباد الله إخوانا » وهذا كالتعليل لما سبق ، وتنبيه إلى أنهم إذا تركوا التحاسد والتناجش والتباغض والتدابر وبيع بعضهم على بيع بعض كانوا إخواناً ، ثم يشير الحديث إلى الأخوة الإسلامية وما لها من حقوق «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره» ولقد أرسى القرآن الكريم قواعد الأخوة وهى مرتبطة بالإيمان ، وحقوقها وهى تتركز فى الإصلاح ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات١٠] وقد حرم الله الظلم ونهى عن التظالم بين العباد ، ففى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » كما نهى الإسلام عن أن يخذل المسلم أخاه ودعا إلى نصرة المسلم لأخيه ، وقدر الجزاء على ذلك من جنس العمل ، روى أبو داود من حديث أبى طلحة الأنصارى وجابر بن عبد الله ، عن النبى صلى

الله عليه وسلم قال : « ما من امرئ مسلم يخـذل امـرأ مسـلماً فـى موضـع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله موضع تجــب فيـه نصرته ، وما من امرئ ينصـر مسـلماً فـى موضـع ينتقـص فيـه مـن عرضـه وتنتهك فيه حرمته إلا نصره الله موضع تجب فيه نصرته » وأيضاً لا يحل للمسلم أن يحدث أخاه فيكذبه ولا يحل له أن يحتقـر أخـاه المسـلم، ففـى الحديث : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ما يؤخذ من الحديث

١- النهى عن الرذائل المذكورة من الحسد والتنـاجش والتبـاغض والتدابـر والبيع على بيع المسلم .

٢- الأمر بالأخوة الإسلامية وحقوقها .

٣- النهى عن الظلم والخذلان والكذب والاحتقار.

٤- التأكيد على التقوى وصفاء القلوب .

٥- الدعوة إلى صيانة حرمات المسلمين دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

❁❁❁

٢٣ - احفظ الله يحفظك

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبـى صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال لى « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله .. يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وفى رواية غير الترمذى « احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا » توجيه نبوى حكيم، فيه الحفظ والعون ، وفيه البشر والفرج ، إنه منهج حياة ، وطريق سعادة، يرسى هذا المنهج الحكيم الرسول العظيم الذى لا ينطق عن الهوى . وراوى هذا الحديث صحابى جليل ، يؤكد صحة ما سمع ، ويوضح مكانه وقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يعلمه هذا المنهج الرائع يعلمه وهو فى مقتبل عمره أنه غلام وسوف يواجه مراحل من الحياة مختلفة ، وستلقاه الحياة بأشكال شتى من عسر ويسر وفرج، والخلاص من عوائق أزمتها وشدتها إنما هو فى المحافظة على حدود الله ، وأوامره ونواهيه، وقد امتدح القرآن الكريم كل حفيظ لهذه الحدود، قال الله تعالى : ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق٣٢،٣٣] والمحافظة على الصلاة مطلوبة : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ

يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون ٩] والمحافظة أيضاً على الأيمان ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة ٨٩] وهكذا كالمحافظة على الفروج ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون٥] إن المحافظة على أوامر الله ونواهيه فيها المحافظة على العبد من ربه والجزاء من جنس العمل وهـذا كما قال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة٤٠] . وقال : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة١٥٢] وقال : ﴿إِن تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد٧] وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته ويتمثل ذلك فى حفظه فى حياته من الشبهات والضلالات والشهوات وكل ما هو حرام وفى الحديث القدسى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر وإن بسطت عليه أفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك وإن من عبادى من يطلب باباً من العبادة فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب ، إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم إنى عليم خبير » أخرجه الطبرانى .

إذن فكل شىء قد كتبه الله وقدره فمهما يصنع البشر فلن يستطيعوا أن يغيروا شيئاً مما قدره الله ، بل إن ما قدره الله للعبد هو الخير ، والناس كل الناس أعجز ما يكونون أن ينفعوا عبداً إلا بما كتبه الله له أو أن يضروه إلا بما قدره الله وكتبه عليه ، وقد عبر الحديث عن هذا التقدير الإلهى والتدبير المحكم بقوله : رفعت الأقلام وجفت الصحف ، وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد ٢٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم جواباً لمن قال له : يا رسول الله ففيم العمل

اليوم؟ أفيم جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « لا بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير، قال: فيم العمل؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له» رواه مسلم .

وقد رأينا فى رواية أخرى للحديث بأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً وهذا يعطينا دلالة واضحة لا لبس فيها بأن الله قادر على كل شىء قادر على تفسير الأوضاع وتبديل الأحوال وكشف الأزمات وتفريج الكروب ولكن متى يكون ؟ عندما يتعلق القلب بالله ويعتمد على ربه ويتوكل عليه ، كما قال الله سبحانه :﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق ٣] .

ولطالما قص القرآن الكريم من قصص تفريج الكروب حين تتناهى مثل نجاة نوح ومن معه فى الفلك ونجاة إبراهيم من النار وفداه ولده الذى أمر بذبحه ونجاة موسى وقومه من الغرق وإغراق عدوهم ومواقف أيوب وموسى وقصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع أعدائه ونجاته منهم فى الغار ويوم بدر وأحد والأحزاب وغير ذلك .

إن الحديث بهذا المنهج الرائع يرسم صورة مشرقة لحياة المؤمنين الذين يرتبطون بخالقهم فيحيون سعداء آمنين لهم النجاة فى الدنيا من كل كرب والسعادة فى الآخرة وجنة عرضها السماوات والأرض .

ما يؤخذ من الحديث

١- أن فى طاعة الله حفظاً للإنسان .

٢- فضل الاتجاه لله تعالى وحده .

٣- لا يملك النفع والضر إلا الله تعالى .

٢٤- إذا لم تستح فاصنع ما شئت

عن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » رواه البخارى .

فى هذا الحديث إشارة إلى أن هذا القول مأثور عن الأنبياء المتقدمين وأن الناس أخذوه عن أنبيائهم ، وتداولوه فيما بينهم ، وأخذه اللاحقون عن السابقين جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن .

وأما المراد بقوله : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ففى معناه أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء ولكنه على معنى الذم والنهى عنه ، فهو إما على طريقة التهديد والوعيد ، أى إذا لم يكن لديك حياء فاعمل ما شئت ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيك عليه ، وهذا كقول الله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت٤٠] وهذا كقول الله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر١٥] وإما على طريقة الأمر بمعنى الخبر ، فالمعنى: إن لم تستح فاصنع ما شئت ، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء ، فمن لم يكن له حياء انهمك فى الفحشاء والمنكر .

وعن سلمان الفارسى قال : « إن الله إذا أراد بعبد هلاكاً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً ، فإذا كان مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة فلم تلقه إلا خائناً مخوناً فإذا كان خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة فلم تلقه إلا فظاً غليظاً ، فإذا كان فظاً غليظاً نزعت ربقة

الإيمان من عنقه وإذا نزع ربقة الإيمان من عنقه لم تلقه إلا شيطاناً لعيناً ملعناً » وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على رجل وهو يعاتب أخاه فى الحياء يقول : إنك تستحى، كأنه يقول قد أضر بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعه فإن الحياء من الإيمان » وفى الصحيحين أيضاً عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « الحياء لا يأتى إلا بخير » .

ومن الحياء ما هو خلق وطبيعة ليس مكتسباً وهذا النوع هو أعظم أنواع الحياء وأكرم الأخلاق التى يمنحها الله للعبد ويعطيه عليها لأنه يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصى والذنوب والرذائل والقبائح . ومن الحياء نوع آخر بالاكتساب عن طريق معرفة عظمة الله تعالى ، وأنه يعلم السر وأخفى. وأنه الحكيم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وفى حديث ابن مسعود « الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وأن تذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا» فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله . أخرجه الإمام أحمد والترمذى.

وهناك قول آخر فى معنى قوله: « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » أنه أمر بفعل ما يشاء على ظاهر أمره وأن المعنى إذا كان الذى يريد فعله مما لا يستحى من فعله لا من الله ولا من الناس لكونه من أفعال الطاعات أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة فاصنع منه حينئذ ما شئت ، وقال بعض السلف ـ وقد سئل عن المروءة ـ فقال : ألا تعمل فى السر شيئاً تستحى منه فى العلانية ، وروى عبد الغنى بن سعد بإسناده عن حرملة بن عبد الله قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم لأزداد من العلم

فقمت بين يديه فقلت يا رسول الله ما تأمرنى أن أعمل بـه ؟ قـال : ائـت المعروف واجتنب المنكر ، وانظر الذى سمعته أذنك من الخير الـذى يقولـه القوم لك إذا قمت من عندهم فأته ، وانظر الذى تكـره أن يقولـه القـوم لـك إذا قمت من عندهم فاجتنبه ، قال: فنظرت فإذا هما أمران لم يتركا شيئاً: إتيان المعروف واجتناب المنكر ».

ما يؤخذ من الحديث

١- الحث على خلق الحياء .

٢- إذا نزع الحياء ضل العبد .

٣- الحياء خلق الإسلام وسائر الأنبياء.

❁❁❁

٢٥- من لا يرحم الناس لا يرحمه الله

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عيه وسلم : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » رواه البخارى ومسلم والترمذى.

إن الله سبحانه وتعالى هو الرحمن الرحيم ، ويحب من عباده أن يكونوا رحماء ويجعل رحمته لعباده المتراحمين ، وأما الذين لا يتراحمون فلا يكونون أهلاً لرحمة الله تعالى .

ومن رحمة الله بعباده أن بعث لهم رسولاً من أنفسهم يتسم بالرحمة كما قال تعالى :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة ١٢٨] .

ويمتن الله تعالى على عباده وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران ١٥٩].

أى برحمة من الله لنت لهم ، ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيئ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنه وتركوه ، ولكن الله تعالى ألان جانبه لهم تأليفاً لقلوبهم ، قال عبد الله بن عمرو : إنى أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة « إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وهذا معنى قوله : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران ١٥٩]

ومن رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب أن يطيل فى صلاته ولكن إذا سمع بكاء صبى خفف صلاته مخافة أن يشق على أمه .

ومن توجيهاته صلى الله عليه وسلم قوله : « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير ، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء » رواه البخارى مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لا يقل أحدكم أطعم ربك ، وضيء ربك ، اسق ربك ، وليقل سيدى ومولاى ولا يقل أحدكم : عبدى أمتى، ولكن فتاى وفتاتى وغلامى » .

رواه البخارى.

إنها النظرة الحانية لأولئك البسطاء من العبيد والإماء وأضرابهم، لقد جعل الإسلام لتوقير الكبير مكانة معلومة حتى لا يفرط الناس إلى درجة يقول فيها المولى لفتاه : أطعم ربك أو يقول الفتى لمولاه: ربى ، ففى هذا الضرب من القول ذلة وخضوع بالنسبة للفتى واستعلاء وخيلاء بالنسبة للمولى ، فلا رب ولا إله إلا الله الواحد لا شريك له . وفى الحديث « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله تعالى وهو عليه غضبان » رواه أحمد والبخارى فى الأدب.

أما سبب هذا النهى فيرجع إلى أمرين ، أحدهما أن الربوبية خاصة لله تعالى لا شريك له ، قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة ٥] .

والمتراحمون هم أهل لرحمة الله تعالى ، وفى الحديث القدسى :

« اطلبوا الفضل من الرحماء فإنى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى » .

وإذا نزعت الرحمة من قلب إنسان أصبح شقياً، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » .

والإسلام ينشد من أتباعه الرحمة الشاملة العامة ، عن أبى موسى رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم . قال : إنه ليس برحمة أحدكم خاصة ولكنها رحمة العامة » . رواه الطبرانى .

إن دعوة الإسلام للرحمة دعوة مؤكدة وعامة وشاملة لرحمة الإنسان بنفسه ، وبأهله وبأرحامه وجيرانه وعامة الناس ورحمة الإنسان والحيوان ورحمة كل من فى الأرض حى يستحق رحمة من فى السماء ، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ». رواه أبو داود .

ومظاهر الرحمة التى يجب للإنسان أن يرحم فيها أخاه الإنسان كثيرة، رحمته بعدم إيذائه ورحمته بمد يد العون والمساعدة إليه ، ورحمته باحترام مشاعره وإعطائه حقه ، وإنزاله منزلته إلى غير ذلك من كل ما فيه حق للإنسان على أخيه أو مساعدة يمكن أن يسديها إليه ، فمن مميزات أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه أنهم « رحماء بينهم » .

ما يؤخذ من الحديث

١- دعوة الإسلام إلى الرحمة بجميع أنواعها .

٢- الراحمون يستحقون رحمة الله تعالى .

٢٦- السماحة فى البيع والشراء

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » .
رواه البخارى .

الإسلام هو دين السماحة واليسر فى كل عباداته ومعاملاته ، فهو يدعو إلى الرحمة والرفق ، والتسامح والتجاوز فى البيع والشراء والاقتضاء وهذه الرحمة فى المعاملات يستحق بها صاحبها رحمة الله سبحانه وتعالى: «الراحمون يرحمهم الرحمن» .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « رحم الله رجلاً .. .. » هو دعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحمة لمن كان متسامحاً رفيقاً بالناس فى معاملاتهم رحيماً بهم ، وممن ذهب إلى أنه دعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن حبيب المالكى ، وابن بطال ، ورجحه الداودى .

ويحتمل أن يكون المراد « الخبر » أى أنه عليه الصلاة والسلام يخبر عن حال من كان متسامحاً فى معاملاته فى الدنيا ، بأن الله تعالى يكون متسامحاً معه فى الآخرة ورحيماً به ، ويؤيد هذا ما رواه الترمذى من طريق زيد بن عطاء بن السائب عن ابن المنكدر بلفظ : « غفر الله لرجل كان قبلكم كان سهلاً إذا باع » .

والسماحة فى البيع والشراء والاقتضاء يراد بها ترك المضاجرة أو المضايقة ونحو ذلك لا التنبه والمكايسة التى يفطن بها المسلم للحق والعدل

وفيما رواه الترمذى وابن ماجة وابن حبان من حديث نافع عن ابن عمر وعائشة مرفوعاً : « من طلب حقاً فليطلبه فى عفاف واف أو غير واف» أى يطلبه فى عفاف عما لا يحل .

فالحديث يدعو إلى الكرم والتساهل فى البيع والشراء وفى الاقتضاء أى طلب قضاء الحق ، بأن يكون بسهولة ، وعدم إلحاف .

وفى رواية : « وإذا قضى » أى أعطى الذى عليه بسهولة ويسر ، ودون مماطلة أو تسويف . روى الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة مرفوعاً :« إن الله يحب سمح البيع ، سمح الشراء سمح القضاء » والإسلام بهذا التوجيه الحكيم ينشد من أتباعه السماحة فى معاملاتهم وأن يتخلقوا بمعالى الأمور ، ومكارم الأخلاق ، وأن يتركوا المشاحة فى حياتهم وألا يضيقوا على الناس فى المطالبة ، وأخذ العفو منهم والتسامح معهم : وفيما رواه البخارى ـ بسنده ـ أن حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : كنت آمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر ، قال : فتجاوز الله عنه» قال أبو عبد الله وقال أبو مالك عن ربعى كنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر .

وقال العلماء ـ فى حد الموسر ـ هو من كان عنده مئونته ومئونة من تلزمه نفقته ، وقال ثورى وابن المبارك وأحمد وإسحاق : من عنده خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب فهو موسر .

وقال الشافعى : قد يكون الشخص بالدرهم غنياً مع كسبه ، وقد يكون بالألف فقيراً مع ضعفه فى نفسه وكثرة عياله .

وقال بعض العلماء : الموسر والمعسر يرجعان إلى العرف ، فمن كان حاله بالنسبة إلى مثله يعد يساراً فهو موسر وعكسه وهذا هو المعتمد . والإسلام إذ يدعو إلى روح التعاون والتسامح بين الناس فى بيعهم وشرائهم وسائر معاملاتهم إنما يريد أن يوثق ـ بهذا ـ عرى المجتمع ، وأن يجمع الناس على كلمة الحق ، وأن يتراحم الناس فيما بينهم حتى يستحقوا رحمة الله سبحانه وتعالى . وفى الحديث مقاومة للجشع والطمع ، والأثرة والأنانية ، بل تبلغ الدعوة فى التسامح لدرجة أن يمهل الإنسان أخاه أو أن يتجاوز عنه وييسر عليه ، ففى الحديث : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة » .

والتيسير على المعسر فى الدنيا من جهة المال بأحد أمرين : إما بإنظاره إلى الميسرة ، وذلك واجب كما قال الله تعالى :﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة ٢٨٠] وتارة بالوضع عنه إن كان غريماً ، وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره . وجاء فى المسند عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن تستجاب دعوته أو تكشف كربته فليفرج عن معسر » .

ما يؤخذ من الحديث

١- الدعوة إلى التسامح فى البيع والشراء والاقتضاء والاستيفاء.

٢- رحمة الله تعالى بعباده المتسامحين المتراحمين الذين يتعاونون على الخير .

٢٧- حول أسباب المغفرة

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا بن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة ». رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

إن رحمة الله واسعة وإن عفوه كبير ، وإن كرمه ليدعو جميع الناس أن يهرولوا إلى ساحة مغفرته ورضوانه ، وفى الحديث القدسى الذى معنا نداء إلهى كريم إلى الإنسان وما أكرمه من نداء وما أعظمه من دعاء ! فهو من رب الأرباب وملك الملوك الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ينادى رب العزة سبحانه وتعالى كل الناس إلى أن يقرعوا باب كرمه وجوده بالدعاء ، وأن يتقربوا إليه بالدعاء والاستغفار وتأكيد توحيد الله واختصاصه وحده بالدعاء .

ومن أخذ فى أسباب التقرب من ربه فقد أخذ فى أسباب سعادة دنياه وأخراه ، وكيف لا وفى التقرب من الله تقرب الله من العبد ، وتقربه يعنى إجابة دعائه ومغفرة ذنوبه وتحقيق آماله فى الدارين .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه من حديث معرور بن سويد عن النبى صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى : « مَنْ تَقَرَّب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ومَنْ تقرب منى ذراعاً تقربت إليه باعاً ومَنْ أتانى يمشى أتيته هرولة ومَنْ لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئاً لقيته بقرابها مغفرة »

وقد اشتمل الحديث على ثلاثة أسباب للمغفرة .

وأول هذه الأسباب هو الدعاء مع الرجاء ، وقد أمرنا الله تعالى بدعائه ووعد بالإجابة ، فقال سبحانه : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر٦٠] والمراد بقوله : « إنك ما دعوتني ورجوتني » أن يكون الرجاء قرين الدعاء ، بمعنى أن يدعو العبد وهو موقن بالإجابة ، قال صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة وإن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل له » أخرجه الترمذى ، وليس لأحد أن يعترض على ذلك بأن يكون قد دعاه ولم يتحقق مطلبه ولأن الله أعلم بما ينفع العبد فإما أن يعوضه خيراً مما طلب وإما أن يصرف عنه بذلك سوءا أو يدخرها له فى الآخرة أو يغفر له بها ذنباً ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل أو كشف عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » رواه الترمذى وأحمد ، وفى المسند وصحيح الحاكم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم أو قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل دعوته وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها . قالوا: إذن نكثر ، قال: الله أكثر ، وقال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر٥٣] ومن أسباب المغفرة : الاستغفار ، قال تعالى﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل٢٠] .

وأمر الله بالتوبة من الذنوب بعد أن يستغفر العبد ربه فقال : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود٣] .

وأثنى القرآن على أولئك المقربين المحبوبين من رب العالمين بأنهم لا يغفلون عن الاستغفار بل يداومون عليه فى الليل وقت السحر

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران ١٧] .

وذكر سبحانه من صفات المؤمنين المتقين الذين استحقوا جنة الله أنهم كانوا دائمى الاستغفار ويتبعون تفريطهم بالاستغفار، فقال :﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ١٣٥] .

وأفضل أنواع الاستغفار كما جاء فى السنة الشريفة أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ثم يعترف بذنبه ثم يسأل الله المغفرة، قال صلى الله عليه وسلم : «سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

رواه البخارى

والسبب الثالث للمغفرة الذى اشتمل عليه الحديث هو التوحيد « إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا» أى ملؤها أو ما يقاربها «ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » .

وهذا الفضل إنما هو بمشيئة الله تعالى فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه ، ثم كانت عاقبته النجاة من النار .

وينبغى هنا أن نشير إلى أن المراد بالتوحيد ما يستتبعه فهو يعنى العقيدة والإيمان، ومعلوم أن الإيمان بلا عمل لا يكون كاملاً .

ما يؤخذ من الحديث

١- فضل الدعاء والرجاء والاستغفار والتوحيد .

٢- أثر هذه العبادات فى مغفرة الذنوب ومضاعفة الأجر والثواب.

٢٨- من فارق الدنيا والله عنه راضٍ

عن أنس بن مالك رضـى الله عنـه أن رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم قال: « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقـام الصـلاة وآتـى الزكـاة فارقـها والله عنـه راض » . رواه ابـن ماجـة والحـاكم وقـال صحيح على شرط الشيخين . وفى هـذا الحديـث الشـريف يوضـح الرسـول صلى الله عليه وسلم أهمية الإخلاص لله وحده لا شريك لـه ، وإلى جـانب توحيد الله، والإخلاص لله وحده لا شريك له ، أقام الصلاة وآتى الزكاة ، فجمع بذلك بين الإيمان والعمل ، وبين العقيدة والعبادة .. وقد جمـع هـذا الحديث بين الإيمان والعبادة ، وجمع بين العبادة البدنية والعبادة المالية .

والحديـث يؤكـد الإخـلاص لله ، وأن جميـع الأعمـال يجـب أن تكـون خالصة لله رب العالمين .

قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٢، ١٦٣] .

والإخلاص لله وحده شرط لصحة العمل وكلمة التوحيد هـى عنـوان هـذا الدين لأن فيها إقراراً بوحدانية الله تعالى وتصديقاً به وبما جـاء بـه رسـول الله صلى الله عليه وسلم ولأن فيها اتجاهاً لله وحده لا شـريك لـه فالعبـادة خالصة والدين خالص لله .

قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّـهُ الدِّيـنَ أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِص ﴾ [الزمر ٢، ٣] .

قال تعالى لرسوله علية الصلاة والسـلام ﴿ قُـلْ إِنِّـي أُمِـرْتُ أَنْ أَعْبُـدَ اللهَ

مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر ١١] .

والحديث يوضح أهمية الإخلاص للدين قولاً وعملاً وتطبيقاً عملياً حتى يفارق الإنسان الدنيا والله عنه راض والدعوة إلى إخلاص الدين لله يقصد بها ترك الملل الزائفة والمذاهب المادية الباطنة ، ومحاربة التيارات الوافدة التى تحاول أن تلقى بالشبه والدعاوى المغرضة فى البيئة الإسلامية .. إن هؤلاء المغرضين المعادين للإسلام مهما تسموا بأسماء المسلمين ومهما ظهروا فى ثيابهم فإنهم لم يخلصوا لله .. وإنما اتبعوا أهواءهم فضلوا وأضلوا ، إن الإسلام لا يتجزأ وهو دين ودنيا ودولة وعقيدة وعمل ، وهو الدين الوسط لا إفراط فيه ولا تفريط .. وهو كما قلنا: إيمان وعمل لا ينفصل الدين عن الدولة بحال من الأحوال فالذين ينادون بالعلمانية ويحاولون الفصل يحيدون عن منهج التوحيد ولا يخلصون الدين لله ومن اتبعهم فقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فعليه أن يثوب إلى رشده وأن يتعرف على أصول هذا الإسلام ودعائمه وقيمه .. حتى يكون الدين كله لله .. وعلى كل مسلم أن يحذر أولئك المغرضين الذين يحاولون دس السم فى العسل وإلقاء الشبهات فى المحيط الإسلامى بغياً منهم وعدواناً .

وهذا الحديث دعوة صريحة لإخلاص الدين لله وإخلاص العمل لله .. وأخذ كل ما جاء به الرسول والانتهاء عما نهى عنه .

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر٧] .

ما يؤخذ من الحديث

١- الإسلام عقيدة وعبادة ودين ودولة .

٢- أهمية التوحيد والإخلاص والصلاة والزكاة وغير ذلك من العبادات.

٣- بطلان العلمانية وكل الدعوات التى تنادى بفصل الدين عن الحياة.

٢٩- إن الصبر عند الصدمة الأولى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم: « إن الصبر عند الصدمـة الأولى « أخرجـه الإمـام أحمـد وأصحـاب الكتب الستة.

سبب هذا الحديث ـ كما رواه البخارى ـ عن ثابت البنانى قال: سمعت أنس بن مالك يقول لامرأة من أهله : تعرفين فلانة؟ قالت : نعم ، قـال : فإن النبى صلى الله عليه وسلم مر بها وهى تبكى عند قبر فقال: اتقـى الله واصبرى ، فقالت : إليك عنى فإنك خلو من مصيبتـى ، قـال : فجاوزهـا ومضى ، فمر بها رجل ، فقال : مـا قـال لـك رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم، قالت : ما عرفته ، قال : إنه لرسول الله صلـى الله عليـه وسـلم ، قال : فجاءت على بابه فلم تجد عليـه بوابـاً ، فقـالت: يـا رسـول الله ، والله مـا عرفتـك ، فقـال النبـى صلـى الله عليـه وسـلم: « إن الصـبر عنـد الصدمة الأولى ».

نعم الصدمة الأولى لها تأثيرها على الإنسان ولهـا مفاجأتـها التـى يـهتز لها شعوره ، ويتبدى فيها الإيمان الحق ، فمن كان قوى الإيمان بالله كـان صبره قوياً ، ومن كان ضعيف الإيمان كان صـبره ضعيفـاً ، والنـاس حيـال نوائب الحياة ، ولدى الصدمات ، تبدو درجات إيمانهم ، فمنهم من يسلم الأمر لله ، ويصبر ويحتسب ، ويعلن صادق الإيمان والرضا ، ولا يقـول مـا يغضب ربه، ومن الناس من يهتز بالمصيبة ، وقد تفقده صوابـه وقـد يتفـوه بألفاظ غير لائقة بالمؤمن وهكذا ، وهـذا الحديـث يوضـح للمسـلم أن الصـبر

الحقيقى والقوى والدال على صدق الإيمان ما يكون عند الصدمة الأولى، وقد قال الله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٥] وما صدمات الحياة إلا أنواع من الابتلاءات التى يمتحن الله تعالى بها عباده ليظهر الصابرون منهم والصادقون . قال سبحانه : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد٣١]

ونصيب كل إنسان من الابتلاءات على قدر إيمانه ، فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء : ثم الأمثل، فالأمثل ، يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة » ،رواه ابن حبان : ولأهل الابتلاءات فى الآخرة من الجزاء الوافر ما لا يقع تحت حصر ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر ١٠] بل أهل العافية فى الدنيا يتمنون فى الآخرة أن لو كانوا قد ابتلوا ، وذلك عندما يعاينون جزاء الله تعالى . قال عليه الصلاة والسلام : « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض» رواه الترمذى .

وليس معنى هذا أن الإسلام ينادى بالآلام أو يدعو إليها وإنما يرفع الله تعالى أهلها الصابرين عليها، الثابتين على إيمانهم الراضين بما قسم الله لهم، إن الله يغفر لهم ذنوبهم ، ويطهرهم فى الدنيا بتلك الأمراض والابتلاءات والمصائب التى تصيبهم ، عن أم العلاء قالت: دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريضه فقال : « يا أم العلا أبشرى فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الحديد والفضة»

رواه أبو داود . وليثق المؤمن بأنه حين يصبر عند الصدمة الأولى ، أن الله تعالى سيعينه على صبره ، ويجزيه عليه ويصبره الله .

وأن يتيقن بأن الخلق جميعاً بيد الله ، وكلنا ودائع فى الأرض سنرد إلى الله وكما قال الشاعر :

وما الناس والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

عن القاسم بن محمد قال : « هلكت امرأة لى فأتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى بها، فقال: إنه كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد وكانت له امرأة وكان بها معجباً فماتت ، فوجد عليها وجداً شديداً حتى دخل فى بيت وأغلق على نفسه واحتجب فلم يكن يدخل عليه أحد فسمعت به امرأة من بنى إسرائيل فجاءته فقالت: إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها، ليس يجزينى إلا أن أشافهه بها ، ولزمت بابه فأخبر بها فأذن لها، فقالت: أستفتيك فى أمر ، قال : وما هو ؟ قالت: إنى استعرت من جارة لى حلياً فكنت ألبسه زماناً ، ثم إنها أرسلت تطلبه، فأرده إليها، قال : نعم والله ، قالت: إنه قد مكث عندى زماناً فقال : ذلك أحق لردك إياه، فقالت له : يرحمك الله ، أفتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك ، وهو أحق به منك، فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها « رواه مالك . وهكذا نرى أهمية الصبر وخاصة عند الصدمة الأولى، وفقنا الله تعالى للعمل بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلنا من الصابرين .

ما يؤخذ من الحديث

١- أهمية الصبر وجزاء الصابرين .

٢- فضل الصبر عند الصدمة الأولى .

٣٠- أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم

قال البخارى رحمه الله : حدثنا مسدد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج سمعت ابن أبى مليكة يحدث عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» .

يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث أبغض الناس إلى رب العالمين سبحانه وتعالى ، وهو ذلك الرجل الألد الخصم .

و « ألد » أفعل تفضيل من اللدد وهو شدة الخصومة ، والخصام جمع خصم مثل كلاب وكلب ، والمعنى : أشد المخاصمين مخاصمة .

وقيل: إن « أفعل » هنا بمعنى فاعل ، أى وهو لديد الخصام أى شديد المخاصمة .

والمعنى أن أبغض الرجال إلى الله تعالى من كان شديد اللدد ، كثير الخصومة .

ومن معانى الألد : الكذاب ؛ فإن من يكثر المخاصمة يقع فى الكذب كثيراً. ومن معانى الألد أيضاً : الأعوج ؛ لانحرافه عن الحق.

وقال الكرمانى : الأبغض هو الكافر، فالمعنى : أبغض الرجال الكفار الكافر المعاند أو بعض الرجال المخاصمين .

وفيما رواه أبو داود ـ بسنده ـ عن أبى أمامة رفعه .

« أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً» والربض الأسفل .

قال الإمام النووى رحمه الله : والألد : شديد الخصومة ، مأخوذ من لديدى الوادى وهما جانباه ؛ لأنه كلما احتج عليه بحجة أخذ فى جانب آخر . وأما « الخصم » : فهو الحاذق بالخصومة ، والمذموم هو الخصومة بالباطل فى رفع حق أو إثبات باطل، والله أعلم .

وقد حرم الإسلام الخصومة ، وهجر المسلم لأخيه المسلم ، عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » رواه مسلم .

وقد دعا الإسلام إلى سرعة الصلح بين المتخاصمين ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات٩] وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء١٢٨] .

ووضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصلح من أسباب المغفرة وأن الخصومة من أسباب منع الخير ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تفتح الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً : إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا » رواه مسلم .

كما جعل الإسلام الفجور فى الخصومة من علامات النفاق « .. وإذا خاصم فجر » .

وإذا كان أبغض الرجال شديد الخصومة ، فإن أقرب الناس إلى الصلح والوفاق أقرب إلى الله تعالى ، وإن البعيد عن الخصومة الذى يألف ويؤلف هو أحب الناس إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣١- الرحمة مائة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة . وأرسل في خلقه كلهم رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بالذى عند الله من العذاب ، لن ييأس من النار ». أخرجه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخرجه مسلم عن سلمان الفارسى وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظه : إن الله خلق ـ يوم خلق السموات والأرض ـ مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السموات والأرض ، فجعل منها فى الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش و الطير بعضهما على بعض ، وأخر تسعاً وتسعين فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة .

وسبب ورود هذا الحديث ما أخرجه الإمام أحمد عن جندب بن عبدالله البجلى رضى الله عنه قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتقولون هذا أضل أم بعيره . ألم تسمعوا ما قال ؟ قالوا بلى ، قال : لقد حظر رحمة واسعة ، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة تعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها وعنده تسع وتسعون ، أتقولون هو أضل أم بعيره .

قال الكرمانى : الرحمة هنا عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير ، والقدرة فى نفسها غير متناهية ، والتعلق غير متناه لكن حصره فى مائة على سبيل التمثيل تسهيلاً للفهم وتقليلاً لما عند الخلق وتكثيراً لما عند الله سبحانه وتعالى . وأما مناسبة هذا العدد الخاص ، فحكى القرطبى عن بعض الشراح أن هذا العدد الخاص أطلق لإرادة التكثير والمبالغة فيه ، ويحتمل أن تكون مناسبة هذا العدد الخاص لكونه مثل عدد درج الجنة ، والجنة هى محل الرحمة فكأن كل رحمة بإزاء درجة ، وقد ثبت لا يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى فمن نالته منها رحمة واحدة كان أدنى أهل الأرض منزلة ، وأعلاهم منزلة من حصلت له جميع الأنواع من الرحمة . وقال القرطبى : مقتضى هذا الحديث أن الله علم أنواع النعم التى ينعم بها على خلقه مائة نوع فأنعم عليهم فى هذه الدنيا بنوع واحد تنظمت به مصالحهم وحصلت به مرافقهم ، فإذا كان يوم القيامة كمل لعباده المؤمنين ما بقى فبلغت مائة وكلها للمؤمنين وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب ٤٣] .

وقد كتب الله تعالى رحمته للمؤمنين الصادقين الذين يؤتون الزكاة ويتبعون الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

[الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧]

وللحديث الذى نحن بصدده رواية أخرى أخرجها البخارى بسنده أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءا واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» وإنما خص الفرس بالذكر لأنها أشد الحيوان المألوف الذى يعاين المخاطبون حركته مع ولده ، ولما فى الفرس من الخفة والسرعة فى التنقل ، ومع ذلك تتجنب أن يصل الضر منها إلى ولدها ، وتلك الرحمة أودعها الله تعالى فى قلوب الناس والحيوان، يتراحمون فى الدنيا وتكون سبباً لرحمتهم يوم القيامة « الراحمون يرحمهم الله » .

ولقد نادى الإسلام برحمة الضعفاء البسطاء ، كالعبيد والخدم . عن أبى مسعود البدرى كنت أضرب غلاماً لى بالسوط فسمعت صوتاً من خلفى اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام . فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى . فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار » . رواه مسلم .

وتتسع جوانب الرحمة لتشمل رحمة الإنسان بنفسه فلا يوردها موارد الهلاك ، ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة ١٩٥] ، ورحمة الإنسان بوالديه ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء٢٤] ورحمة الإنسان بأبنائه . عن أبى هريرة رضى الله عنه: قَبَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين ابنى على وعنده الأقرع بن حابس التميمى

فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحداً قط فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: « من لا يرحم لا يرحم » رواه مسلم . ورحمة الإنسان بأرحامه وذوى القربى ، ورحمته بجيرانه وبالإنسان وبالحيوان وبكل محتاج وفقير وضعيف بحيث تستمر الرحمة مشرقة فى كل جوانب الحياة ولا تنزع منها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » رواه أبو داود .

ما يؤخذ من الحديث

١- عظم رحمة الله بعباده دنيا وأخرى .

٢- يحظى بالرحمة الراحمون فى الدنيا المطيعون لله تعالى .

❁❁❁

٣٢- الترغيب فى الـزواج

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالباءة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة » رواه أحمد وابن حبان .

الإسلام دين القوة والعفة والأمانة ، يوجه أتباعه إلى عمارة الحياة على أساس من القوة التى تتمثل فى كثرة من المسلمين الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يكاثر ويفاخر بأمته يوم القيامة ، ولذا فهو يأمر المؤمنين بالباءة . وهى المعاشرة الزوجية الحلال التى يكون بها السكن والمودة، والمؤانسة والمحبة والرحمة قال الله تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم ٢١]

وإلى جانب الأهداف السابقة فإن فى الزواج أهدافاً دينية واجتماعية أخرى، منها المحافظة على النوع الإنسانى وتعمير الحياة بالنسل وهو سبحانه وتعالى المتكفل بالأرزاق قال تعالى : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل٧٢] .

ومن هذه الأهداف أيضاً كمال العفة بالزواج من غض البصر وحفظ الفرج.

قال تعالى :﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور٣٠، ٣١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » . وإذا ما تبين لنا أهمية الزواج وما يترتب عليه من أهداف دينية واجتماعية ، فإن العزوف عن الزواج وترك الباءة بحجة التبتل والانقطاع للعبادة فحسب ليس من روح الشريعة السمحة التى جاءت بمطالب الدنيا والآخرة وسعادة البشرية وبنائها ، ومن هنا كان نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التبتل ، وتحذيره عن ترك الزواج والانقطاع عن النساء ، فلا رهبانية فى الإسلام ، إنما هو دين سمح يتجاوب مع الحياة وينقيها من كل دنس ، ويطهرها من كل فاحشة ، ويبعث فيها روح العمل والعبادة والتناسل والتكاثر ، ولقد أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على الذين أرادوا أن يأخذوا حياتهم بالانقطاع للعبادة صلاة دائمة وصوماً كثيراً وبعداً عن النساء، وقال : « لكنى أنا أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه .

وفى الحديث الذى معنا يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الراغب فى الزواج بأن يتزوج الولود وهى كثيرة الولادة ، والمرأة التى تكون كثيرة الولادة إنما تكون هذه الصفة واضحة فيها إذا كانت قد تزوجت قبل ذلك وعرف من حالها كثرة الإنجاب تلك هى الثيب ، أما البكر التى لم يسبق لها الزواج من قبل ، فكيف تعرف تلك الصفة فيها ؟

نقول يعرف ذلك فى البكر بحال قرابتها المتزوجات كالأخت أو العمة أو الخالة وما إلى ذلك .

كما يدعو الحديث راغب الزواج إلى ملاحظة صفة أخرى من أهم صفات المرأة التى ستكون شريكة الحياة وربة البيت تلك هى صفة الخلق الحسن

والمودة الكثيرة وهى ما عبر عنها فى الحديث بقوله « الودود » أى المحبوبة بكثرة ما هى عليه من خصال الخير وحسن الخلق ، والتحبب إلى زوجها ، ولهذه الصفة أهميتها فى استمرار المعاشرة الزوجية واستقرار البيت الزوجى، وانتشار المودة فيه وحسن العشرة ، وإلى جانب ذلك فإن المرأة التى تتسم بالأخلاق الفاضلة والمودة وحسن العشرة ينشأ الأبناء على تربيتها وتوجيهها نشأة حسنة .

ففى أحضانها تنمو عواطفهم ، وتتربى ملكاتهم وعاداتهم وتقاليدهم فهى الخلية الأولى فى المجتمع ، وهى أكثر ملازمة للأبناء من الرجل بحكم وجودها فى البيت أكثر منه ، وهى أكثر انطباعات لأخلاق الأبناء ولأنها تعتبر المدرسة الأولى التى تعد الأجيال وتخرجهم للمستقبل بأصالة فى الخلق وعراقة فى العادات الحسنة ، وجمال فى الأدب والذوق ، وكما قال الشاعر :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وهكذا نلاحظ أن المكاثرة والمفاخرة من النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة ليس بمجرد الكثرة بل بالكثرة المؤمنة ذات الخلق الفاضل ، وأما وجه المكاثرة والمفاخرة فلأن من كانت أمته أكثر من الأنبياء فثوابه أكثر ، لأن له مثل أجر من تبعه .

ما يؤخذ من الحديث

١- الترغيب فى الزواج من الودود الولود .
٢- النهى عن ترك الزواج بحجة التبتل .

٣٣- ثانى مصادر التشريع الإسلامى

عن أبى نجيح العرباضى بن سارية السلمى رضى الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، قلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال : « أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجز ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

إن لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانتهم فى الإسلام ومنزلتهم العالية فإنهم كالنجوم يهتدى بها ، ولو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه، نعم لقد صرح القرآن الكريم بعدالتهم، قال الله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة١٠٠] وقال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح٢٩] إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم هم شهود هذا الذين وحملة أعظم تراث فى الوجود فلهم احترامهم ومكانتهم والترضى عليهم كما هو مذكور فى آداب السنة المشرفة ، والذين ينالون من الصحابة ولا يقدرونهم حق قدرهم يقول فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضاً .. ».

ولقد وضح الرسول صلى الله عليه وسلم أن خير القرون قرنه ، وأن خير الناس أصحابه ثم من بعدهم وهكذا ، قال عليه الصلاة والسلام : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجىء أقوام تسبق شهادة

أحدهم يمينه ويمينه شهادته » رواه البخاري .

ولقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الـذى نحـن بصـدده إلى تقوى الله تعالى ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وذلك حتى لا تكون فتنة وحتى لا يشق الناس عصا الطاعـة ويفـارقوا الجماعـة كمـا بيَّـن عليه الصلاة والسلام أن من عاش سيرى اختلافـاً كثـيراً وعندئـذ فعليـه أن يتمسك بسنته صلى الله عليه وسلم، ففيها الخـلاص مـن الفـتن ، والنجـاة من الخلافات ففى الحديث: « تركت فيكم ما إن تمسـكتم بـه لـن تضلـوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى » .

كما أمر عليه الصلاة والسلام بالأخذ بسـنة الخلفـاء الراشـدين المـهديين وعليهم أن يتمسكوا بها وأن يحرصوا عليها وأن يعضـوا عليـها بـالنواجز ، وأن يحذروا محدثات الأمور فإن كل بدعـة ضلالـة، وفـى حديـث آخـر : وضح أن من يحدث فى الدين أمراً فإنه مـردود غـير مقبـول، حيـث يقـول صلى الله عليه وسلم: « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وفى رواية أخرى: « من أحدث فى ديننا » ففسـر المـراد بقولـه « فـى أمرنا » وهو أمر الدين وليس أمر الحـضارة أو الصـناعة مثـلاً ، فالإسـلام لا يمنع من الاختراعات الصناعية ولا من الاكتشـافات الحضاريـة وكـل مـا ينفع البشرية فهو دين العلم والتقدم والعمل والسعى والنـهوض ، والإسـلام هو دين ودنيا ودولة وفى التمسك بسنة الرسول صلى الله عليه وسـلم وسـنة الخلفاء الراشدين سعادة فى الدنيا وفى الآخرة .

ما يؤخذ من الحديث

١- الأمر بالتقوى والسمع والطاعة ، وإن تأمر عبد .

٢- الأمر بالأخذ بما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

٣- التحذير من محدثات الأمور .

٣٤- من مشاهد الإسراء

روى الإمام مسلم ـ بسنده ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى على موسى ابن عمران عليه السلام ، رجل آدم طوال جعد ، كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس وأرى مالكاً خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله إياه ، ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة٢٣] قال كان قتادة يفسرها أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لقى موسى عليه السلام » رواه مسلم .

فى هذا الحديث الشريف الذى أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه يقص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المشاهد التى مر عليها فى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد مر على موسى بن عمران عليه السلام ، ثم أورد وصفه ، بأنه رجل آدم أى أسمر « طوال » بضم الطاء أى طويل ، «جعد» جعودة الجسم هى اجتماعه واكتنازه « كان من رجال شنوءة » وهى قبيلة معروفة سموا بذلك من قولك رجل فيه شنوءة أى تقزز ، وسموا بذلك لأنهم تشانؤا وتباعدوا ، وقال الجوهرى : الشنوءة : التقزز وهو التباعد من الأدناس .

كما رأى ضمن مشاهداته ليلة الإسراء والمعراج عيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم أورد أيضاً بعض أوصافه « مربوع الخلق » وهو الرجل بين الرجلين فى القامة ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير شديد القصر « سبط الرأس » والشعر السبط : هو الشعر المسترسل ليس فيه تكسر .

ورأى ضمن مشاهده كذلك مالكاً خازن النار والدجال فى آيات أراهن

الله إياه ، ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة٢٣] قال: كان قتادة يفسرها أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قد لقى موسى عليه السلام . وهذا الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ ﴾ [السجدة٢٣] هو من استدلال بعض الرواة ، وأما تفسير قتادة فقد وافقه جماعة منهم مجاهد والكلبى والسدى وعلى مذهبه ومعناه : فلا تكن فى شك من لقائك موسى .

قال الإمام النووى : وذهب كثير من المحققين من المفسرين وأصحاب المعانى إلى أن معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى الكتاب ، وهذا مذهب ابن عباس ومقاتل والزجاج وغيرهم .

والآية المذكورة فى الاستدلال هى الآية الثالثة والعشرون من سورة السجدة وفيها يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ [السجدة٢٣] وفى الآية يخبر الله تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة ، فلا تكن فى مرية من لقائه - يعنى ليلة الإسراء - وهكذا أطلع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى هذه الليلة على العديد من المشاهد ، والأمور السمعية التى لم يرها أحد قبله ، ولا نبى ولا رسول وما ذلك إلا لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنه أفضل خلق الله ، وله من الخصوصيات ما أفرده الله تعالى به .. وقد كان عليه الصلاة والسلام فى إخباره عن موسى وعيسى يورد بعض الأوصاف الدقيقة والدالة على صدق وصفه ورؤيته لتلك المشاهد وللأنبياء .

وقد يسأل سائل يقول : كيف يتم هذا والأنبياء السابقون أموات وهم الآن فى الدار الآخرة ؟ وكيف نتصور أنهم صلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم وليست الآخرة دار عمل ؟ وللجواب عن هذا نقول : إنهم كالشهداء بل هم أفضل منهم ، والشهداء أحياء عند ربهم فلا يبعد أن يصلوا كما فى

بعض الأحاديث الأخرى وأن يتقربوا إلى الله ، وهناك وجه آخر : هو أن عمل الآخرة ذكر ودعاء كما فى قوله تعالى : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [يونس ١٠] .

أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرى أحوالهم التى كانت فى حياتهم ومثلوا له فى حال حياتهم كيف كانوا وكيف كانت أحوالهم كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم : « كأنى أنظر إلى موسى وكأنى أنظر إلى عيسى وكأنى أنظر إلى يونس عليه السلام » .

وهناك وجه آخر : أن يكون أخبر عما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم من أمرهم وما كان منهم وإن لم يرهم رؤية عين هكذا قال القاضى عياض رحمه الله كما أورد ذلك الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم وهو رأى طيب ترتاح إليه النفس ، إذ أن الله تعالى قد أطلع رسوله عليه الصلاة والسلام على أمور كثيرة تثبت لجميع الناس أنه مؤيد من عند الله تعالى ، وأن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون ، وأنه قد رأى من مشاهد السابقين ، ومن الأمور السمعية ما لم يره سواه مما يشهد له صلى الله عليه وسلم بالخصوصيات وأنه أفضل خلق الله وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا سول الله .

ما يؤخذ على الحديث

١- رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء للكثير من الآيات .

٢- إثبات أنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وأن له كثيراً من الخصوصيات .

❁❁❁

٣٥- سيد ولد آدم وأول شافع

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى: حدثنى الحكم بن موسى أبو صالح حدثنا هقل ـ يعنى ابن زياد ـ عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار حدثنى عبد الله بن فروخ حدثنى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع » .

فى هذا الحديث الشريف ، بيان لمكانة رسول الله صلى الله عيه وسلم ومنزلته فى الدنيا وفى الآخرة ، وكيف لا وهو الذى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين ﴾ [الأنبياء١٠٧] فالرحمة هى جوهر رسالته ، وفيها تركزت دعوته، يقول عليه الصلاة والسلام موضحاً ذلك « إنما أنا رحمة مهداة » وقد وصفه رب العزة سبحانه باسمين من أسمائه الحسنى وهما الرؤوف الرحيم ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة١٢٨] وبعثه بالخلق العظيم ، فقال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [ن : ٤]

وفى الحديث الذى معنا توضيح من الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته يبين لهم فيه بأنه سيد ولد آدم ومعنى « السيد » الذى يفزع الناس إليه فى أمورهم . وهو الذى يفوق قومه فى الخير فيخفون إليه فى شدائدهم ونوازلهم، فينهض لمعاونة المحتاج ، ومساعدة الضعيف ، ومواساة المنكوب

وهكذا . والسيادة لدى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيمة الجوانب عامة الخير وفى كل الجوانب .

إنه صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم فى الدنيا وفى الآخرة ، ولكن الحديث خص « يوم القيامة » بالذكر ، مع أنه سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة، لأن مكانته وسؤدده يظهر في يوم القيامة لكل الناس ولا يبقى معاند ولا متكبر ولا مناع للخير والهدى إلا ويرى ويسمع ويشاهد مكانته وسيادته يوم القيامة .

وهذا بخلاف الدنيا فقد نازعه ملوك الكفار وزعماء المشركين الذين ادعوا ذلك بهتاناً وزراً ، وهذا التقييد بيوم القيامة قريب من معنى قول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر١٦] .

وواضح أن الملك لله قبل يوم القيامة وأثناءه وبعده وفى كل وقت وحين . ولكن كان في الدنيا من يدعى الملك أو من يضاف له ملك شيء من الأشياء على سبيل المجاز أما في الآخرة فانقطع أى ملك لأى أحد وأصبح الملك لله الواحد القهار.

وفى قوله صلى الله عليه وسلم: « أنا سيد ولد آدم » لم يقل ذلك فخراً وحاشاه أن يكون متفاخراً وهو الذى لا حاجه له في الفخر ، بل هو الذى حذر من الفخر والغرور ووضح أنه من المعاصي والشرور ، بل إنه صرح فى حديث آخر بنفى الفخر فى حديث له مشهور ، حيث قال: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » وإنما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى له بالتحدث بنعمته حيث قال جل شأنه: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى١١] ولأنه توضيح كونه سيد بنى آدم من البيان الذى

يجب عليه أن يبلغه إلى أمتــه وأن يوضحــه لهـم ، ليعرفـوه ويقـدروه حـق قدره، وليعملوا بمقتضاه من التوقير والاحـترام الـذى كلفـهم بـه رب العـزة سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق جميعاً، وأما ما جاء من الأحاديث مثـل « لا تفضلـوا بـين الأنبيـاء » فقـد ذكر الإمام النووى فى الإجابة عليه خمسة أوجه :

أحدهما : أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلمـا علم أخبر به .

الثانى : قاله أدباً وتواضعاً .

الثالث : أن النهى إنما هو عن تفضيل يؤدى إلى نقيض المفضول .

الرابع : إنما نهى عن تفضيل يؤدى إلى الخصومة والفتنة .

الخامس: أن النهى مختص بالتفضيل فى نفس النبوة فلا تفاضل فيـهما ، وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى ولابد من اعتقاد التفضيـل فقـد قـال الله تعـالـى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة٢٥٣].

ما يؤخذ من الحديث

١- مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه وعند النـاس وفـى الدنيـا والآخرة .

٢- أنه سيد ولد آدم ، وأنه يجــوز قـول: سـيدنا محمـد صلـى الله عليـه وسلم.

٣٦- حسن خلقه صلى الله عليه وسلم

عن أنس قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أخذ أبو طلحة بيدى فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أنساً غلام كيس فليخدمك، قال: فخدمت فى السفر والحضر والله ما قال لى لشىء صنعته لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشىء لم أصنعه لِمَ لم تصنع هذا هكذا؟ » رواه مسلم .

فى هذا الحديث الذى يرويه لنا أنس رضى الله عنه وقد عاشر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال الإقامة وفى حال السفر الذى يستدل به على الأخلاق فلمس حسن خلق رسول صلى الله عليه وسلم عن قرب وأحس برفقه ورحمته، وفى رواية أنه خدمه تسع سنين وفيها يقول أنس: فما أعلمه قال لى قط لم فعلت كذا وكذا وكذا؟ ولا عاب علىَّ شيئًا قط .

وفى حديث آخر يروى لنا أنس رضى الله عنه واقعة تدل على رأفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً فأرسلنى يوماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبى الله صلى الله عليه وسلم فخرجت حتى أمر على صبيان وهو يلعبون فى السوق فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاى من ورائى، قال: فنظرت إليه وهو يضحك فقال: يا أنيس أذهبت حيث أمرتك ؟ قال: قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشىء صنعته لم فعلت

كذا وكذا؟ أو لشيء تركته هلا فعلت كذا وكذا؟ .

إن عظمته تشرق فى كل جوانب الحياة فى جوده وفى سعة صدره وفى صدقه وأمانته وتبليغه وفطانته وفى لينه ووفائه وفى مهابته وحسن معاشرته يقول الإمام على كرم الله وجه : كان أجود الناس كافا وأوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ويقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله وما سئل عن شيء إلا أعطاه .

ويروى عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ويجمل القرآن عظمة خلقة فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [ن : ٤].

وإذا تتبعنا أنماط الأسوة الحسنة لنتخذ منها منهجاً ونبراساً فى بناء الشخصية فإننا سنقف أمام عظمة هائلة ومثاليات فذة من حياة رسولنا عليه الصلاة والسلام وكلها تتسم بالحق والخير والسمو والاعتدال، ففى جانب السرور أو الحزن وفى المشاعر الظاهرة أو الوجدانية كان صلوات الله وسلامه عليه يضبط النفس فيما يسر أو يحزن فإذا فرح بما يسر ابتسم وإذا ضحك لم يقهقه . وعن جابر بن سمرة وكان لا يضحك إلا تبسماً وإذا تعرض لما يحزنه طوى الحزن فى داخله وكظم الغيظ وإذا زاد حزنه فإنه لا يخرجه عن طبيعته الطيبة الكريمة.

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخلنا مع النبى صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم عليه السلام وهو يجود بنفسه ـ أى يحتضر ـ فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف

وأنت يا رسول فقال : يا بن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بـأخرى فـقال : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقـك يـا إبراهيم لمحزونون » .

وفى جانب حياته المنزلية وشئون المعيشة مع الأهـل كـان متعاونـاً بـاراً بحيث لا تشغله شئونه تلك عن عبادة الله .

سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : مـا كـان النبـى صلـى الله عليـه وسلم يصنع فى أهله ؟ قالت: كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قـام إلى الصلاة وبهذا نرى أن أثر الأسوة الحسنة فى بناء الشخصية يمد الحيـاة بضوء كاشف لتمضى على رشد وهدى فـلا تحيـد يمنـة أو يسـرة ولا تتعـثر خطاها فى الدروب المعتمة وإنما تتجمع خطوطها العريضة من جميع زوايـا الحياة عبادة وعملاً لتلتقى عند هدف واحد وملتقى ثـابت حيـث تتمحـض الأعمـال كلـها وتخلـص فـى اتجاهـها لله رب العـالمين ﴿ قُـلْ إنَّ صَلاَتِـي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَـهُ وَبِذَلِـكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٣]



٣٧- لا تسبوا أصحابى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» رواه الشيخان .

إن أول تعريف للصحابى هو من لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام .

ويرى أهل السنة والجماعة أن جميع الصحابة عدول ، وقد أثنى عليهم القرآن الكريم والسنة المطهرة وثبتت عدالتهم بالكتاب والسنة ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة١٤٣] والوسط الخيار والعدول ، وقال الله تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾ [آل عمران١١٠] ويدخل فى الخطاب الصحابة دخولاً أولياً . وقال سبحانه :﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار﴾ [التوبة ١٠٠] .

وكأنى بهذه النصوص وغيرها وهى تفحم أولئك الجاهلين والمعاندين وتنادى المسلمين الغيورين على دينهم وأمجاده وتراثه لنصد معاً غارات المقتحمين ، ونخرس ألسنة أولئك الذين ينتقصون الكثيرين من الصحابة من أمثال أبى هريرة رضى الله عنه وغيره.

وليستمعوا إلى ما قاله الإمام أبو زرعة الرازى : إذا رأيت الرجل ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، وذلك لأن الرسول حق وما جاء به حق ، وإنما أدى ذلك إلينا كله الصحابة وهؤلاء -

أى الزنادقة وأشباههم ـ يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة والجرح بهم أولى وهو زنادقة .

وأما ما شجر بين الصحابة رضى الله عنهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على قسمين :

الأول : ما وقع عن غير قصد كيوم الجمل .

الثانى : ما كان عن اجتهاد كيوم صفين .

ومعلوم أن ما كان عن غير قصد لا إثم فيه ، وأن الاجتهاد إن أخطأ صاحبه فله أجر وإن أصاب فله أجران .

وأما ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم أن الصحابة عدول إلا من قاتل عليا فهو قول مردود ، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن ابن ابنته وهو سيدنا الحسين بن على رضى الله عنه وكان معه على المنبر فقال عليه الصلاة والسلام: « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» . رواه البخارى .

ولقد ظهر وتحقق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عندما نزل سيدنا الحسن بن على رضى الله عنه لمعاوية عن الأمر بعد موت أبيه سيدنا على رضى الله عنه .

واجتمعت كلمة المسلمين على معاوية وسمى عام الجماعة وذلك سنة أربعين من الهجرة ، فنلاحظ فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى الجميع مسلمين ، وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات٩] فسمى القرآن الجميع مؤمنين مع

حدوث القتال بين الطائفتين.

وأفضل الصحابة سيدنا أبو بكـر الصديـق رضـى الله عنـه ثـم مـن بعـده سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم سيدنا عثمان بن عفان رضـى الله عنه ثم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وهكذا .

ثم بقية العشرة ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم أهل بيعة الرضوان وهكـذا ، وجميعهم خيار من خيار ، عدول مكرمون رضى الله عنهم أجمعـين ، ولـن يبلغ أحد مبلغهم ، بل لو أنفق أحدنا مثل جبل أحد من الذهـب مـا كـان ليدرك مقدار نصف قدح أنفقه أحدهم وهو المد الذى مثل به الرسـول صلـى الله عليه وسلم فى الحديث، وفى هذا إشارة إلى مكانتهم عند الله ومنزلتهم العالية رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .



٣٨- آية الإيمان .. وآية النفاق

روى الإمام البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار » .

خص الله تعالى أنصار رسوله عليه الصلاة والسلام بهذه المنقبة العظيمة لما فازوا به من استقبال الدعوة الإسلامية ، واستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه ، والقيام بشئونهم وتضحيتهم وبذلهم ومواساتهم بالنفوس والأموال ، ولما قدموه من إيثار جل عن النظير حتى نزل فى شأنهم قرآن يتلى ، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر ٩] .

قال الإمام الحافظ ابن حجر : ثم كان ما اختصوا به مما ذكر موجباً الحسد ، والحسد يجر البغضاء ، فلهذا جاء التحذير من بغضهم والترغيب فى حبهم ، حتى جعل ذلك آية الإيمان أو النفاق تنويهاً بعظيم فضلهم ، وتنبيهاً على كريم فعلهم ، وإن كان من شاركهم فى معنى ذلك مشاركاً لهم فى الفضل المذكور كل بقسطه .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن على : « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » .

وهذا جار باطراد فى أعيان الصحابة لتحقق مشترك الإكرام ؛ لما لهم من حسن العناء فى البلاء فى الدين، وقال صاحب المفهم : « وأما الحروب الواقعة بينهم فإن وقع من بعضهم بغض لبعض فذاك من غير هذه الجهة ، بل للأمر الطارئ الذى اقتضى المخالفة ، ولذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق ، وإنما كان حالهم فى ذلك حال المجتهدين فى الأحكام للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد » .

وفيما رواه البخارى ـ بسنده ـ إلى البراء رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم أو قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله » .

وعن هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك يقول :

« مر أبو بكر والعباس رضى الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار رضى الله عنهم وهم يبكون فقال: ما يبكيكم ؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبى صلى الله عليه وسلم منا ، فدخل على النبى فأخبره بذلك ، قال: فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية برد ، قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أوصيكم بالأنصار فإنهم كَرِشِى وعيبتى وقد قضوا الذى عليهم وبقى الذى لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » رواه البخارى .

ومعنى « كرشى » أى بطانتى وخاصتى، ومعنى « عيبتى » أى ما يحرز فيه الرجل نفيس ما عنده ، يريد أنهم موضع سره وأمانته ، وهذا

يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة .

فإنهم بايعوا على أن يؤوا النبى صلى الله عليه وسلم وينصروه على أن لهم الجنة فوفوا بذلك .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » رواه مسلم .

إن مكانة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شهدت بها آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فهم شهود هذا الدين وحملته ونقلته ، وحبهم وحب الأنصار الذين أووا ونصروا علامة على صدق إيمان المؤمن ، كما أن بغضهم علامة على النفاق . نفعنا الله بحب أصحابه واتباع سنتهم والاقتداء بهديهم ، ووقانا شانئيهم ، ووفقنا الله إلى سلوك طريق الصحابة ، آمين .

❁❁❁

٣٩- فضل الأنصار

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر حدثنا شعبة عن هشام قال : سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : قال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى وموعدكم الحوض ».

فى هذا الحديث الشريف بيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لفضل الصحابة ومكانتهم رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد وجه الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الأنصار وبيَّن لهم أنه ستكون أثرة بعده وأمرهم أن يصبروا ، ووعدهم باللقاء على حوضه الشريف يوم القيامة .

وأخرج الشافعى من رواية محمد بن إبراهيم اليتمى إلى أسيد بن حضير، طلب من النبى صلى الله عليه وسلم لأهل بيتين من الأنصار فأمر لكل بيت بوسق من تمر وشطر من شعير ، فقال أسيد رضى الله عنه : يا رسول الله جزاك الله عنا خيراً ، فقال: وأنتم فجزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، وإنكم لأعفة صبر وإنكم ستلقون بعدى أثرة » الحديث .

ولقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم. عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا عيش إلا عيش الآخرة فأصلح الأنصار والمهاجرة » .

وعن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله وقال: « فاغفر للأنصار » .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء ـ أى لونها كلون الدسم وهو الدهن ـ حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد .. أيها الناس ، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح فى الطعام ، فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم » رواه البخارى.

ولقد أثنى الله تعالى عليهم وخلد ذكرهم بأعظم مآثرهم فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر٩].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أو قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم «لو أن الأنصار سلكوا واديا أو شعبا لسلكت فى وادى الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار» رواه البخارى .

لقد كان للأنصار فضل إيثارهم واستقبالهم للدعوة ، وكان للمهاجرين فضل تضحياتهم وهجرتهم للوطن والمال والأهل وكان للجميع سبقهم وكرامتهم عند ربهم والتى قال الله تعالى عنها : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة١٠٠] إن الذين يتبعونهم بإحسان رضى عنهم الله ، أما الذين يبغضونهم ويخالفون السنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فعليهم لعنة الله وغضبه ، ألا فليعرف الجميع للصحابة فضلهم ومكانتهم فهم حملة الإسلام وشهوده .

٤٠- مبايعة الرسول ﷺ لأصحابه

قال الإمام البخارى رحمه الله تعالى: حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال وحوله عصابة من أصحابه ـ «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

لقد أورد الإمام مسلم والإمام البخارى هذا الحديث فى كتاب الحدود وذلك واضح للإشارة فيه إليها ، ولكن أورده البخارى فى الإيمان ، لأن فى الحديث ما يتعلق بمباحث الإيمان من وجهين :

الأول : أن اجتناب النواهى من الإيمان كامتثال الأوامر .

والثانى : أنه تضمن الرد على من يقول: إن مرتكب الكبيرة كافر أو مخلد فى النار ، كما أورده البخارى فى باب « علامة الإيمان حب الأنصار » وذلك لأنه لما ذكر الأنصار فى حديث قبل هذا الحديث أشار فى الحديث إلى ابتداء السبب فى تلقيبهم بالأنصار لأن أول ذلك كان ليلة العقبة لما توافقوا مع النبى صلى الله عليه وسلم عند عقبة منى فى الموسم.

والنقباء : جمع نقيب ، وهو عريف القوم وضمينهم والناظر عليهم ، والعصابة : الجماعة من عشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها .

وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الأنصار ليلة العقبة أن يبايعوه ـ أى أن يعاهدوه ـ على تلك الأمور المذكورة « ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم » وإنما خص القتل بالأولاد لأنه قتل وقطيعة رحم ، فالنهى عنه أشد وآكد ، ولأن قتل الأبناء كان شائعاً كمثل وأدهم للبنات وقتلهم ، للبنين مخافة الفقر ، وخص الأبناء بالذكر لأنهم بصدد ألا يدفعوا عن أنفسهم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، والبهتان هو الكذب الذى يتحير من عظمه وشأنه ، يقال: بهت الرجل أى انقطع وتحير فالبهتان عبارة عن كذب يبهت سامعه ، وإنما خص الأيدى والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال بهما ، ويحتمل أن يكون المراد لا تبهتوا الناس كفاحاً ، وبعضكم يشاهد بعضاً كما يقال: قلت كذا بين يدى فلان ، قال الخطابى: وفيه نظر لذكر الأرجل ، وقيل ذكر تأكيداً ، أو أن المراد بقوله «بين أيديكم » أى فى المال « وبين أرجلكم » أى فى المستقبل لأن السعى من فعل الأرجل ، وقال بعض العلماء : أصل هذا كان فى بيعة النساء، وكنى بذلك عن نسبة المرأة الولد الذى تزنى به أو تلتقطه إلى زوجها ، ثم لما استعمل هذا اللفظ فى بيعة الرجال احتيج إلى حمله على غير ما ورد فيه أولاً.

« ولا تعصوا فى معروف » المعروف هو ما عرف من الشارع حسنه نهياً وأمراً ، قال النووى: يحتمل أن يكون المعنى ولا تعصونى ولا أحد أولى الأمر عليكم فى المعروف .

وقال بعض العلماء: نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان فى غير معصية الله ، « فمن وفى منكم فأجره على الله » وفى بالتخفيف والتشديد ، « ومن أصاب من ذلك شيئاً » فالعقاب فى الدنيا كفارة له وعلى هذا تكون الحدود كفارات لأصحابها .

وعموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به﴾ [النساء١١٦] فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل له كفارة والحديث دليل على أن الحدود كفارة لأهلها ، وأما حديث أبى هريرة : « لا أدرى الحدود كفارة لأهلها » فحديث عبادة أصح إسناداً، وقيل يمكن مع هذا الجمع بينهما بأن يكون حديث أبى هريرة ورد أولاً قبل أن يعلمه الله ثم أعلمه بعد ذلك، ولكن يمنع الجمع إن كانت ليلة العقبة بمنى وهى البيعة الأولى وأبو هريرة إنما أسلم بعد ذلك بسبع سنين عام خيبر فكيف يكون حديثه متقدماً .

والحق أن البيعة التى فى الحديث كانت بعد فتح مكة وحصل الالتباس لأن عبادة حضر البيعتين وكانت بيعة العقبة من أجل ما يمتدح به فكان يذكرها إذا حدث تنويهاً بسابقته ، والحديث لم يهمل المأمورات وإنما ذكرها إجمالاً فى قوله : « ولا تعصوا » إذ العصيان مخالفة الأمر وإنما نص على كثير من المنهيات دون المأمورات .

وفى الحديث دلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصى غير الكفر لا يقطع لصاحبها بالنار إذا لم يتب بل هو فى مشيئة الله خلافاً للخوارج الذين يكفرونه والمعتزلة القائلين بخلوده فى النار، والأصح أن الحدود كفارات وحديث عبادة متأخر عن حديث أبى هريرة .

٤١- زكـاة الفـطر

روى الإمام مسلم رحمه الله بسنده عن ابن عمر أن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمـر أو صاعـاً من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين .

۞ اللـغـة

« فرض » أى ألزم وأوجب كما قال الجمهور ، فزكاة الفطر علـى ذلـك فرض واجب عندهم ، وقال بعض العلماء : فرض بمعنى قـدر علـى سـبيل الندب « زكاة الفطر » وتسمى : صدقة الفطر ، وأضيفت للفطـر : لكونـها تجب بالفطر من رمضان ، وقال ابن قتيبـة : المـراد بصدقـة الفطـر صدقـة النفوس مأخوذة من الفطرة التى هى أصل الخلقة ، والرأى الأول أظهر .

« صاعاً » منصوب على التمييز أو علـى أنـه مفعـول ثـان ، والصـاع : قدحان والقدح مدان ، والصاع عند الحنفية بالكيل المصرى قدحان وثلث ، وعند الشافعية قدحان ، وعند المالكية قدح وثلث .

۞ الشـرح

جاء الأمر بزكاة الفطر فى عموم قول الله تعالى : ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ثـم بيَّـن رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم التفصيـلات المتعلقـة بـها وبأحكامـها ومقـدارها، وقـال تعـالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى١٤، ١٥] وقد قيل : إنها نزلت فى زكاة الفطر وصلاة العيد.

وشرعت زكاة الفطر تطهيراً لنفس الصائم من اللغـو ، وهـو مـا لا ينعقـد عليه القلب من القول ، ومــن الرفـث وهـو الفحـش مـن الكـلام ، ذلـك أن العبادات التى تطول قد يشق على المسلم أن يتحرز من أمـور تفـوت عليـه كمال العبادة، فلذا شـرع الله تعـالى مـن فضلـه ورحمتـه كفـارة ماليـة بـدل النقص كالهدى فى الحج والعمرة ، وكزكاة الفطر بالنسبة للصائم لما قد يقع للصائم أثناء صومه من لغـو أو نحـوه ، ولـذا روى عـن ابـن عبـاس قـال : «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طـهرة للصـائم مـن اللغـو والرفث وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومـن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات» . رواه أبو داود وابن ماجة .

والكلام عن هذا الحديث يتناول خمسة مطالب :

١- حكم زكاة الفطر .

٢- على من تجب زكاة الفطر ؟.

٣- الأنواع التى يصح إخراج زكاة الفطر منها .

٤- القدر الواجب إخراجه منها.

٥- وقت إخراجها .

أولاً : حكم زكاة الفطر :

يرى جمهور السلف والخلف أن زكاة الفطـر واجبـة وأن معنـى قولـه : فرض : ألزم وأوجب فهى واجبة عندهم لدخولها فى عمـوم قولـه تعـالى : «وَآتُوْا الزَّكَاةَ » كما سبق ولأن غالب استعمال هذا اللفظ فـى الشـرع يكـون بمعنى الوجوب ، وقد ترجم البخارى لزكـاة الفطـر بقولـه : بـاب صدقـة الفطر ، ورأى أبو العالية وعطاء وابن سيرين صدقة الفطر فريضة ، واقتصـر

البخارى على ذكر هؤلاء لتصريحهم بفريضتها ، وقد نقل ابن المنذر وغيره الإجماع على ذلك .

وقال الحنفية بالوجوب دون الفرض بناء على الفرق - عندهم - بين الواجب والفرض وأن الفرض عندهم ما ثبت بدليل قطعى .

وذهب بعض أهل العراق وبعض أصحاب مالك وبعض أصحاب الشافعى وداود إلى أنها سنة مؤكدة ، قالوا : ومعنى « فرض » قدر على سبيل الندب ، وقال إبراهيم بن علية وأبو بكر بن كيسان الأصم : إن وجوبها نسخ لما رواه النسائى وغيره عن قيس بن سعد بن عبادة ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت الزكاة لم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله ، قال فى الفتح : وتعقب بأن فى إسناده راوياً مجهولاً وعلى تقدير الصحة فلا دليل فيه على النسخ لاحتمال الاكتفاء بالأمر الأول لأن نزول فرض لا يوجب سقوط فرض آخر اهـ .

ثانياً : على من تجب زكاة الفطر ؟

بيَّن الحديث الذى معنا أن زكاة الفطر تجب على حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين ، وهذا يدل على أنها تجب على أهل القرى والأمصار والبوادى والشعاب وكل مسلم حيث كان، وبهذا قال الأئمة : مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد وجماهير العلماء .

وذهب عطاء والزهرى وربيعة والليث إلى أنها لا تجب إلا على أهل الأمصار والقرى دون البوادى .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « على كل حر أو عبد » ما يفيد أن زكاة الفطر تجب على العبد ، وقد أخذ داود بظاهر الحديث ، فقال

بوجوبها على العبد بنفسه وأوجب على السيد تمكينه منها ومن كسبها كما يمكنه من صلاة الفرض .

ومذهب الجمهور : أنها واجبة على السيد عن عبده ، قال النووى : وعند أصحابنا فى تقديرها وجهان ، أحدهما : أنها تجب على السيد ابتداء . والثانى: تجب على العبد ثم يحملها عنه سيده فمن قال بالثانى : فلفظه « على » على ظاهرها ، ومن قال بالأول قال : إن « على » بمعنى عن . والذى نميل إليه هو أنها تجب على السيد عن عبده لا على العبد نفسه ؛ وذلك لما ورد عن أبى سعيد الخدرى قال : « كنا نخرج زكاة الفطر ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا عن كل صغير وكبير حر ومملوك من ثلاثة أصناف صاعاً من أقط ـ وهو اللبن المتجمد مثل الجبن غير منزوع الزبد ـ صاعاً من شعير .. » رواه مسلم .

ولكن هل تجب زكاة الفطر على الصبى ؟

ذهب البعض إلى أنها لا تجب على الصبى ؛ لأنها تطهير والصبى ليس فى حاجة إلى التطهير لعدم الإثم . وعن سعيد بن المسيب والحسن البصرى: « لا تجب إلا على من صام » .

وذهب الجمهور إلى وجوب إخراجها عن الصبى ، وهذا الرأى ما نرجحه وذلك لما روى عن ابن عمر قال : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل عبد أو حر صغير أو كبير » رواه مسلم .

وأما التعليل بأنها للتطهير والصبى ليس فى حاجة إليه ، فنقول : إن هذا التعليل إنما هو لغالب الناس كما أنها تجب على من لم يذنب

كمتحقق الصلاح أو من أسلم قبل غروب الشمس بلحظة ، قال النووى : وكما أن القصر فى السفر جوز للمشقة ، فلو وجد من لا مشقة عليه فله القصر .

وهل تجب على الفقير كما تجب على الغنى ؟

ذهب الحنفية إلى أنها لا تجب إلا على من ملك نصاباً ، ومقتضاه أنها لا تجب على الفقير ؛ وذلك لحديث : « لا صدقة إلا عن ظهر غنى » وذهب آخرون : إلى أنها تجب على الفقير كما تجب على الغنى لحديث ابن عباس : «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » .

أما الشافعي ومن تبعه فاشترط لوجوبها أن يكون ذلك فاضلاً عن قوت يومه وليلته ومن تلزمه نفقته ، وقال بعض العلماء : لم يدل دليل على اعتبار النصاب فيها لأنها زكاة بدنية لا مالية .

وفى قوله : « ذكر أو أنثى » ما يدل ظاهره على وجوبها على المرأة سواء كان لها زوج أم لا ، وقد قال بهذا أبو حنيفة والنووى وابن المنذر . وذهب مالك والشافعي والليث وأحمد وإسحاق : إلى أنها تجب على زوجها إلحاقاً بالنفقة .

وفى قوله : « من المسلمين » يخرج غير المسلم فلا يلزم إخراج زكاة الفطر عن عبده وزوجته وولده الكفار ، وإن كان يجب عليه نفقتهم، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك والإمام الشافعي وجماهير العلماء.

وقال بعض السلف : تجب عن العبد الكافر . هذا ومن المتفق عليه أنها لا تجب على الكافر عن نفسه ، ولكن هل يخرجها عن غيره ؟ نقل بعض

العلماء : الإجماع على عدم الوجوب لكن فيه وجه للشافعية ورواية عن أحمد.

وهل يخرجها المسلم عن عبده الكافر ؟ قال الجمهور : لا يخرجها ، وقال بإخراجها عطاء والثورى والحنفية ؛ لعموم قوله : « ليس على المسلم فى عبده صدقة إلا صدقة الفطر » ولكن أجيب عن هذا بأن العموم فى هذا الحديث مخصوص بقوله : « من المسلمين » .

ولكن يبقى معنا ما نقله ابن المنذر أن بعضهم احتج بما أخرجه من حديث ابن إسحاق : حدثنى نافع أن ابن عمر كان يخرج عن أهل بيته حرهم وعبدهم ، صغيرهم وكبيرهم ، مسلمهم وكافرهم من الرقيق ، قال : وابن عمر راوى الحديث وقد كان يخرج عن عبده الكافر وهو أعرف بمراد الحديث ، ويمكن الجمع بين هذه الآراء بأنه لو صح خبر ابن عمر فإنه يحمل على أنه كان يخرج عنهم تطوعاً ولا مانع منه . ووقت وجوب زكاة الفطر غروب شمس آخر يوم من رمضان ، وقيل : طلوع فجر يوم العيد ، وقيل تجب بالغروب والطلوع معاً فمن ولد بعد الغروب ومات قبل الفجر لا تجب عليه .

ثالثاً : الأنواع التى يصح إخراج زكاة الفطر منها :

وبمجموع الأحاديث والروايات الواردة فى زكاة الفطر والأنواع التى يصح أن يخرجها المسلم منها يتبين لنا أنها ثمانية أنواع . القمح والشعير والتمر والزبيب والأقط والسلت [1] والدقيق والسويق ، وهناك ستة أصناف لا خلاف بين الأئمة فى جواز إخراج زكاة الفطر منها ، وهى : القمح والشعير والتمر والزبيب والأقط والسلت .

---

(١) السلت : بضم السين وسكون اللام نوع من الشعير يشبه الحنطة فى ملاسته ويشبه الشعير فى طبيعته .

أما بالنسبة للدقيق والسويق ففيهما خلاف ، فعند مالك والشافعى لا يجوز إخراجها منهما ؛ لعدم ذكرهما فى الأحاديث الصحيحة ولأن منافعهما قد نقصت ، وقال أبو حنيفة وأحمد بجواز إخراجها منهما وإن كان في الأحاديث الواردة فيهما مقال إلا أنها لكثرة طرقها يعضد بعضها بعضاً .

بل ويجوز إخراجها من غير هذه الأصناف إذا تعين قوتاً ، بل قال الشافعية: كل ما يجب منه العشر فهو صالح لإخراج الفطرة منه.

وقد نقل النووى رحمه الله الإجماع على جواز البر والزبيب والتمر والشعير إلا خلافاً فى البر لمن لا يعتد بخلافه ، وخلافاً فى الزبيب لبعض المتأخرين وكلاهما مسبوق بالإجماع . وأما الأقط فأجازه مالك والجمهور ، ومنعه الحسن ، واختلف فيه قول الشافعى ، قال: ولم يجز عامة الفقهاء إخراج القيمة ، وأجازه أبو حنيفة .. وجنس الفطرة كل حب وجب فيه العشر، ويجزئ الأقط على المذهب ، والأصح أنه يتعين عليه غالب قوت بلده .

والثانى : يتعين قوت نفسه .

والثالث : يتخير بينهما ، فإن عدل عن الواجب إلى أعلى منه أجزأه ، وإن عدل إلى ما دونه ، لم يجزه . اهـ ، من النووى .

رابعاً : القدر الذى يجب إخراجه :

وردت أحاديث وروايات تحدد القدر الواجب على المسلم أن يخرجه وهو صاع ، إلا ما ورد فى شأن الحنطة والزبيب . أى أن العلماء قد أجمعوا على وجوب الصاع فى غير حنطة أو زبيب . أما فى الحنطة والزبيب فعند الشافعى ومالك والجمهور يجب أن يخرج صاعاً ، وعند أبى

حنيفة نصف صاع لحديث معاوية فيما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : « كنا نخرج إذ كان فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر عن كل صغير وكبير حر أو مملوك صاعاً من طعام أو صاعاً من أقط أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من زبيب فلم نزل نخرجه حتى قدم علينا معاوية بن أبى سفيان حاجاً أو معتمراً فكلم الناس على المنبر فكان فيما كلم به الناس أن قال : « إنى أرى أن مدين من سمراء الشام - وهى القمح الشامى - تعدل صاعاً من تمر فأخذ الناس بذلك » .

ولكن الجمهور استدلوا بحديث أبى سعيد : « كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام أو صاعاً من شعير أو صاعاً من تمر أو صاعاً من أقط أو صاعاً من زبيب » والطعام فى عرف أهل الحجاز اسم للحنطة ، وأما حديث معاوية الذى استدل به القائلون بنصف صاع ، فقد أجاب عنه الجمهور بأنه قول صحابى ، وقد خالفه أبو سعيد وغيره ممن هو أطول صحبة وأعلم بأحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا اختلف الصحابة لم يكن قول بعضهم بأولى من بعض فنرجع إلى دليل آخر، وقد وجدنا ظاهر الأحاديث والقياس متفقاً على اشتراط الصاع من الحنطة كغيرها فوجب اعتماده ، وقد صرح معاوية بأنه رآه لا أنه سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم . اهـ من النووى .

خامساً : وقت إخراجها :

أما عن وقت إخراجها فقد روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة » أى قبل الخروج إلى صلاة العيد بعد أداء صلاة الفجر

وقد ذهب الجمهور إلى استحباب ذلك . وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى ٤، ٥] فقال : « نزلت فى زكاة الفطر ».

وفيما رواه أبو داود وابن ماجة : « .. فمن أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات » . بمعنى أنها لا تعتبر زكاة بل صدقة من الصدقات ، وقال الجمهور: إنها تجزئ إلى آخر يوم الفطر ويحرم تأخيرها عنه بلا عذر واتفق العلماء على عدم سقوطها بالتأخير فى حق من وجبت عليه بل تصير ديناً . وأما تقديمها على العيد: فعند الشافعى يجوز تقديمها من أول الشهر ، وعند مالك وأحمد لا يجوز التقديم عن يومين قبل العيد ، ويجوز دفعها إلى جنس واحد من أنواع مصارف الزكاة ، وقال الشافعية : يستوعب المزكى الأصناف الثمانية إن كانوا موجودين وإلا فتقسم على من وجد منهم .

ما يؤخذ من الحديث

يؤخذ من الحديث بالإضافة إلى ما سبق فى الشرح :

١- أن زكاة الفطر تجب على الغنى والفقير والحر والعبد والذكر والأنثى على نحو ما فصلنا فى الشرح .

٢- القدر الذى يجب إخراجه هو صاع من الأصناف التى ذكرناها.

٣- وأنها لا تجب إلا على المسلمين ، ولا يلزم المسلم زكاة عبده وزوجته وأولاده ووالديه الكفار .

٤- حرص الشريعة الإسلامية على روح التكافل الاجتماعى ونشر التعاون بين المسلمين .

٤٢- إباحة الهدية للنبى ﷺ

روى الإمام مسلم رحمه الله ـ بسنده ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أهدت بريرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم لحماً تصدق به عليها فقال: « هو لها صدقة ولنا هدية ».

اللغة

« هو لها صدقة ولنا هدية » ، أى أنه صدقة بالنسبة لبريرة مولاة جويرية زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد تملكها له وإهدائها إياه يصبح لنا هدية، وفى رواية البخارى : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم بلحم فقيل : تصدق به على بريرة فقال : هو لها صدقة ولنا هدية ، ومعنى « أتى » أى قدم له ، وكانت بريرة قد أهدته لآل بيته ، والفاء فى قوله : « فقيل » عاطفة على محذوف ، والتقدير : فسأل عنه فقيل .

المعنى

تجوز الهدية للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولبنى هاشم وبنى المطلب، حتى ولو كان المهدى ملكها بطريق الصدقة ، فإن الصدقة إذا تملكها المتصدق عليه ، زال عنها اسم الصدقة ووصفها ، وأصبحت كأى مال آخر يتملكه ، وعندئذ تحل لكل من كانت الصدقة محرمة عليه .

وقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لا يأكل من الصدقة لحرمتها عليه ، وكان يأكل من الهدية لإباحتها له وجوازها ، وهذا الحديث يبين موقفاً من مواقفه فى تحرى معرفة ما يقدم إليه لقبوله أو عدمه . فقد أتى بلحم أهدته بريرة التى كانت تخدم زوجه صلى الله عليه وسلم ، فسأل عنه ليعرف هل قدم على سبيل الهدية أم الصدقة ؟

فأجيب : بأنه تصدق به على بريرة ،فقال : هو لها صدقة ولنا هدية فبين بهذا أن اللحم وقع موقع الصدقة فى يد بريرة ، والصدقة إذا قبضها المستحق أصبحت ملكاً له يجوز التصرف فيها كما يشاء من بيع أو إهداء . وعندئذ يزول عنها وصف الصدقة فيصبح للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته أن يأكلوا منها فلم تعد محرمة عليهم بعد ، فقد زال عنها سبب التحريم ، وقدمت على سبيل الهدية فحسب .

وقد روى مسلم عن ابن الشهاب أن عبيد بن السباق قال : إن جويرية زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال : هل من طعام ؟ قالت : لا والله يا رسول الله ما عندنا طعام إلا عظم من شاة أعطيته مولاتى من الصدقة ، فقال : قربيه فقد بلغت محلها أى زال عنها حكم الصدقة ، وصارت حلالاً لنا .

قال النووى : ومنه دليل للشافعى وموافقيه أن لحم الأضحية إذا قبضه المتصدق عليه وسائر الصدقات يجوز لقابضها بيعها ، ويحل لمن أهداها إليه أو ملكها منه بطريق آخر ، .وقال بعض المالكية : لا يجوز بيع لحم الأضحية لقابضها .

ما يؤخذ من الحديث

١- جواز الإهداء من الصدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن يقبضها المستحق ويمتلكها ثم يهدى منها .
٢- تحرى الدقة فى معرفة ما يتناوله الإنسان أحلال هو أم غير حلال.
٣- استحباب التهادى وجواز قبول الهدية حتى من الفقير ؛ لما فيه من إدخال السرور عليه [1] .

---

(١) انظر كتابنا : " فى ظلال الهدى النبوى " .

٤٣- جواز الهدية وتحريم الصدقة
على رسول الله ﷺ

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أتى بطعام سأل عنه فإن قيل : هدية أكل منها ، وإن قيل : صدقة لم يأكل منها » .

اللغة

« فإن قيل هدية » برفع هدية على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو هدية ، وكذلك أيضاً إعراب وإن قيل صدقة .

وفى رواية البخارى : « فإن قيل صدقة : قال لأصحابه : كلوا ولم يأكل ، وإن قيل : هدية ضرب بيده صلى الله عليه وسلم فأكل معهم » أى شرع فى الأكل مسرعاً، ومثله: ضرب فى الأرض إذا أسرع السير فيها.

المعنى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الدقة فى أصل ما يأكل للتأكد من حله ، فإن اشتبه عليه شىء ألقاه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى ثم أرفعها لآكلها ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها » رواه مسلم .

ولنا فيه الأسوة الحسنة ، فى الورع الكامل .. وهذا الحديث يبين حالاً من أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم فى التحرى والبحث عن كون ما يقدم إليه ، أهدية أم صدقة ؟ .

وفى رواية أحمد وابن حبان : « من غـير أهلـه» : أى إذا أتـى بطعـام من جيرانه أو من بعض أصحابـه الذيـن يبعـدون عـن بيوتـه ، فقـد كـانوا يهدون إليه؛ لما عرف عنه من البذل والسخاء ، والإيثـار ، فكـان إذا أتـى إليه بشيء سأل عنه : أهدية أم صدقة ؟ .

فإن قيل صدقة ، قال لأصحابه : كلـوا ولم يـأكل ؛ لأنـها حـرام عليـه وعلى آله ، وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم العلـة فـى تحريمـها فـى قوله : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس » فحرمت الصدقة عليهم لما لهم مـن كرامـة ولتنزيهـهم عـن تلك الأوسـاخ ، ومعنـى أوساخ الناس : أنها تطهـير لأمـوالهم ، وتطهـير لأنفسهم ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة١٠٣] فهى كغسالة الأوساخ ، فهى إنما يدفعها مخرجها لتكفـير ذنوبـه وإثابـة الله لـه ، وإن قيل : هدية شرع فى الأكل مسرعاً فأكل معهم ، وإسراعه هنا عنوان لقبول الهدية ، وليدخل السرور على قلب المتقدم بها .

ما يؤخذ من الحديث

١- تحريم الصدقة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجواز الهدية .
٢- ما كان على الرسول صلى الله عليـه وسـلم مـن تواضـع جـم ومؤانسـة لأصحابه ، حيث يأكل معهم ويفعل ما فيه السرور لهم .
٣- وجوب التأكد من كون ما يأكله الإنسان حلالاً والبعـد عـن الشـبهات ومواطنها .



٤٤- كتاب الصيام

الصيام هو أحد أركان الإسلام التى يقوم بها ، ويبنى عليها ؛ وقد فرضه الله تعالى على المؤمنين من هذه الأمة ، كما فرضه على من قبلها من الأمم فالصوم عبادة قديمة لم تخل أمة من الأمم من افتراضها ، وكان لكل أمة صوم.

فمن أنواع الصوم السابقة : صوم بعض المتصوفة لجميع أيام العمر رغبة فى مزيد من الثواب ، ومثل هذا صوم بعض الرهبان .

ومن أنواع الصيام : الصيام عن الكلام . وعرف هذا النوع عند اليهود ، ومن ذلك : ما حكاه الله تعالى عن مريم عليها السلام﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم٢٦].

ومن أنواع الصيام السابقة : صوم بعض المسيحيين عن الغذاء الحيوانى وما يشتق مه .

ومن أنواعه كذلك : الصيام عن جميع الأعمال أو أغلبها ، كما هو عند البوذيين واليهود .

ومنه : صوم بعض الهنود الذين يجعلون الأرض وطاء لهم ، وما إلى ذلك من صفات الامتناع والإمساك التى تعددت عند كل قوم على حسب صومهم .

والناظر إلى فريضة الصيام فى الإسلام يرى أنها أخذت وضعاً يختلف عما كان عليه غير المسلمين ، وجاءت وسطاً بين الأنواع الأخرى . فلا هى

امتناع دائم يشق على المسلمين القيام به ، ولا هى امتناع قصير ، لا يترك كبير أثر فى النفوس بل إنها وسط بين الأمور ، ولا إفراط فيها ولا تفريط مما يدل على سماحة الإسلام ويسره ، ودقة تشريعه وحكمته .

حكمة الصوم :

وقد فرض الصيام على المسلمين لحكمة جليلة ، هى تحصيل تقوى الله تعالى ؛ كما أشار سبحانه فى قوله :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة١٨٣] ؛ وبهذا تتحدد لنا الحكمة من الصيام وهى وصول التقوى وهى اتقاء عذاب الله ، باتقاء كل معصية فيمتثل الإنسان ما أمر الله به ويجتنب ما نهى عنه .

وفى قوله تعالى :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاس وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة١٨٥] فى هذه الآية بيان لسبب اختصاص شهر رمضان بالصوم دون هواه من بقية شهور السنة ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى الحكمة فى اختيار شهر رمضان بالصوم : بأنه الشهر المبارك الذى ميزه الله تعالى بنزول أكبر نعمة فيه وهى القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم . وفيه شفاء لما فى الصدور ، ورحمة للمؤمنين ، وتطهير للقلوب ، وتزكية للأرواح ، وتلك نعمة من أعظم النعم وأجلها ، يجب على من اهتدى بها أن يشكروا صاحبها بالغدو والآصال، بل إن الشكر على النعمة ينبغى أن يكون من جنسها فى المضمون وفى النتيجة فكان « الصوم » الذى يعمل على تطهير القلوب والسمو بالأرواح.

وإذا علمنا أن الصوم فرض على الأمم السابقة ، فهل فرض على المسلمين صوم قبل رمضان ؟ .

ذهب الجمهور وبعض الشافعية ، إلى أنه لم يجب صوم على المسلمين قط قبل رمضان .

ومن أدلة الشافعية : حديث معاوية مرفوعاً : « لم يكتب الله عليكم صيامه[1]» وذهب الحنفية إلى أن أول ما فرض صوم يوم عاشوراء ، فلما نزل رمضان نسخ ، واستدلوا بظاهر حديثى ابن عمر ، وعائشة ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «صام النبى صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه» رواه البخارى ، وعن عائشة رضى الله عنها ، أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيامه حتى فرض رمضان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من شاء فليصمه ومن شاء أفطره» رواه البخارى ومسلم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم يوم عاشوراء فى مكة قبل الهجرة ، وبعد أن هاجر إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فصامه وأمر بصيامه ، وهذا إنما كان عن وحى أو تواتر أو اجتهاد لا بمجرد إخبار الآحاد عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : «ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال : فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه» رواه البخارى وفى رواية مسلم : هذا يوم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه.

وقد فرض صوم رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة ،

---

(١) رواه البخارى وتمام الحديث " هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ومن شاء فليفطر " .

فنسخ وجوب صوم يوم عاشوراء على مذهب أبى حنيفة ، وعلى مذهب غيره نسخ تأكيد استحباب صومه.

وقد ثبت وجوب صوم رمضان ، بالقرآن والسنة والإجماع ، عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » وفى هذه الرواية تقدم الحج على الصوم، وذلك لأن فى الحج بذلاً للمشقة والمال ، وفى بعض الروايات قدم الصوم على الحج ، وذلك لأن الصوم أعم وجوباً من الحج .

والصوم معلوم من الدين بالضرورة فمن جحد وجوبه ؛ فهو كافر إلا إذا كان قريب عهد بالإسلام أو نشأ بعيداً عن أهل العلم .

تعريف الصيام لغة وشرعاً :

يطلق الصيام فى اللغة على الإمساك مطلقاً ، سواء كان إمساكاً عن طعام أو شراب أو قول أو عمل ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم٢٦] بمعنى : الإمساك عن الكلام السكوت عنه.

وشرعاً : هو إمساك عن الفطر على وجه مخصوص مع النية ؛ وعرفه البعض بأنه الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يوماً كاملاً من طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس بنية مخصوصة ، ويجب صوم رمضان ، إما بإكمال شعبان ثلاثين يوماً ، وإما برؤية الهلال ليلة الثلاثين ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً ».

٤٥- منزلة شهر رمضان

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر، قالوا : حدثنا إسماعيل وهو ابن جعفر عن أبى سهيل عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين».

وحدثنى حرملة بن يحيى أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن ابن أبى أنس أن أباه حدثه أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان رمضان فتحت أبواب الرحمة وغلقت جهنم ، وسلسلت الشياطين » .

اللغة

« إذا جاء رمضان » والرواية الثانية : إذا كان رمضان ، وفى رواية أخرى . إذا دخل رمضان ، والمعنى : إذا ابتدأ رمضان ، وسمى برمضان لأنه وافق مجيئه فى الرمضاء ، وهى شدة الحر ، فسمى بذلك ، وقيل لأنه يرمض الذنوب ، أى يحرقها بمعنى يمحوها . وقيل : لأن القلوب تحترق فيه من الموعظة .

« فتحت أبواب الجنة » روى بتخفيف التاء فى « فتحت » وبتشديدها، والتشديد يفيد الكثرة والمبالغة فى الفتح ، وكذلك بالنسبة إلى

قوله : «وغلقت » بالتشديد ، « وصفدت الشياطين » أى شدت بالأصفاد وهى الأغلال، وهى بمعنى سلسلت ، والصفد بفتح الفاء الغل بضم الغين أى القيد .

۞ المعنى

يبرز هذا الحديث أسمى ما يتطلع إليه المسلم فى الدنيا والآخرة ، ويوضح أجل خصائص الشهر المبارك ، وأعظم علامات الخير فيه ، وهى تفتيح أبواب الجنة ، وإغلاق أبواب النار ، وتسلسل الشياطين .

وقد احتل شهر رمضان المبارك هذه المنزلة الجليلة فى الإسلام ، لما نزل فيه من القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم ، وغير ذلك من الفيوضات الكثيرة .

فهو شهر الخير والبر ، والفضل والرحمة ، لو يعلم الناس ما فى رمضان من الخير لتمنوا أن تكون السنة كلها رمضان ، ويمكن أن نوجز . مقومات الخير فى شهر رمضان ، والتى من أجلها كانت له هذه المنزلة الجليلة فيما يأتى :

١- ما تحدث عنه القرآن ، بقوله تعالى :﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة١٨٥] فنزول القرآن هو أكبر نعمة وأعظم مقومات الخير التى جعلت للشهر مكانة عظيمة من بين الشهور ، وكما قال تعالى : ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة١٨٥] وما ورد كذلك فى السنة الشريفة : أن صحف إبراهيم أنزلت فى أول ليلة من رمضان، وأن التوراة أنزلت لست مضين منه ، وأن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت منه .

٢- ما تميزت به فريضة الصيام من خصائص جعلتها عبادة روحية صافية من أى رياء ، لأنها سر بين العبد وربه لا يطلع عليه أحد سواه ولأن فيها امتناعاً عن ملاذ النفس وشهواتها وكبحاً لجماحها .

٣- ما أفاءه الله تعالى على الصائمين من فضل ، حيث ينزل عليهم الرحمة، ويستجيب لهم الدعاء ، ويضاعف الأجر ، من تقرب فى رمضان بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه .

فإذا كانت هذه هى منزلة الشهر العظيم ، فلا غرابة أن يحيطه الله تعالى بمكرمات عظيمة ، وبتقدير وإجلال ، يليق بمنزلته كتفتح أبواب الجنة ، وإغلاق أبواب النار ، وتصفيد الشياطين .

ويحتمل فى قوله : تفتح أبواب الجنة ثلاثة وجوه :

أولاً : أن نحمل اللفظ على ظاهره وحقيقته ، وتكون هذه الأمور المذكورة وهى تفتح أبواب الجنة ، وتغليق أبواب جهنم وتصفيد الشياطين علامة لدخول الشهر ، وتكريماً له وتعظيماً ، وفى حبس الشياطين فى رمضان كف لهم عن إيذاء المؤمنين .

ثانياً : أن نحمل التعبير على المجاز ، فيكون فتح أبواب الجنة إشارة إلى كثرة الثواب ، وغلق أبواب النار إشارة إلى العفو ، وتصفيد الشياطين إشارة إلى قلة إغوائهم ، فكأن حالهم أشبهت حال المصفدين ، ويكون هذا التصفيد خاصاً بناس دون ناس ، وعن أمور دون أمور ، ويؤيد هذا الرواية الثانية « وفتحت أبواب الرحمة » وجاء فى حديث آخر : « صفدت مردة الشياطين » .

ثالثاً : أن تكون العبارة من قبيل المجاز المرسل ، فأطلق « المسبب » وهو تفتيح أبواب الجنة وغلق أبواب النار وتصفيد الشياطين ، وأراد « السبب » وهو فعل الطاعات ، وعمل الخيرات ، والكف عن المعاصى والسيئات .

وإنما يستشعر كل هذا من صام صوماً حقيقياً ، وقد وضحت السنة الشريفة سمات الصوم الحقيقى المقبول ، وعلى ضوئها يمكن للصائم أن يستشف ما عليه عبادته ، ويتعرف على ثمرة طاعته ، وذلك بما تثمره عبادة الصيام من الكف عن المعاصى ، وغرس الفضائل ، والتحلى بمكارم الأخلاق والصدق فى القول والعمل ، أما إن ظهر كذب أو زور أو غير ذلك من الرذائل فنتيجة الصوم هى ما أخبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وقال بعض العلماء : يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين هم مسترقو السمع منهم وأن تسلسلهم يقع فى ليالى رمضان دون أيامه ، لأنهم كانوا منعوا فى زمن نزول القرآن من استراق السمع فزيدوا التسلسل مبالغة فى الحفظ .

وقال الطيبى : فائدة فتح أبواب السماء ، توقيف الملائكة على استحماد فعل الصائمين وأنه من الله بمنزلة عظيمة . ا هـ ، من الفتح .

ويستدل بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « إذا جاء رمضان » على أنه يجوز أن يقال « رمضان » من غير ذكر الشهر بدون كراهة ، وقد ذكر الإمام النووى ثلاثة مذاهب فى هذه المسألة :

الأول : ما ذهب إليه أصحاب مالك بأنه لا يقال : رمضان دون تخصيصه ووصفه بشهر ، وزعموا أن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فلا يطلق على غير الله إلا إذا كان مقيداً ، ولعلهم استندوا فى ذلك على الحديث الذى رواه أبو معشر نجيح المدنى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة مرفوعًا: « لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله ولكن قولوا شهر رمضان».

وهذا الحديث أخرجه ابن عدى فى الكامل ، وضعفه بأبى معشر ، قال البيهقى : قد روى عن أبى معشر عن محمد بن كعب وهو أشبه ، وروى عن مجاهد والحسن من طريقين ضعيفين .

الثانى : ما ذهب إليه ابن الباقلانى وكثير من الشافعية ، إلى أنه كان هناك قرينة تصرفه إلى الشهر فلا يكره ، وإلا فيكره ، قالوا : فيقال : صمنا رمضان ، قمنا رمضان ، ورمضان أفضل الأشهر ، ويندب طلب ليلة القدر فى أواخر رمضان وأشباه ذلك ، ولا كراهة فى هذا كله ، وإنما يكره أن يقال: جاء رمضان ودخل رمضان ، وحضر رمضان وأحب رمضان ونحو ذلك . اهـ .

الثالث : ما ذهب إليه البخارى والمحققون ، وهو أنه لا كراهه فى إطلاق رمضان بقرينة وبغير قرينة ، قال النووى : وهذا المذهب هو الصواب، والمذهبان الأولان فاسدان ، لأن الكراهة إنما تثبت بنهى الشرع ولم يثبت فيه نهى ، وقولهم : إنه اسم من أسماء الله تعالى ليس بصحيح، ولم يصح فيه شىء ، وإن كان قد جاء فيه أثر

ضعيف ، وأسماء الله توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح ، ولو ثبت أنه اسم لم يلزم منه كراهة . وهذا الحديث المذكور فى الباب صريح فى الرد على المذهبين ، ولهذا الحديث نظائر كثيرة فى الصحيح .

وقد ترجم البخارى فى صحيحه لهذا الحديث بقوله : باب : هل يقال رمضان أو شهر رمضان ؟ وأشار لهذه الترجمة إلى حديث أبى معشر السابق وهو ضعيف ، واحتج البخارى على جواز المسألة بعدة أحاديث ، وقد ترجم النسائى لذلك أيضاً فقال : باب الرخصة فى أن يقال لشهر رمضان رمضان ، ثم أورد حديث أبى بكرة مرفوعاً : « لا يقولن أحدكم صمت رمضان ولا قمته كله » وحديث ابن عباس « عمرة فى رمضان تعدل حجة».

قال الحافظ ابن حجر : وقد يتمسك للتقييد بالشهر بورود القرآن به حيث قال : « شهر رمضان » مع احتمال أن يكون حذف لفظ الشهر من الأحاديث من تصرف الرواة ، وكان هذا هو السر فى عدم جزم المصنف بالحكم اهـ.

ومما سبق يتبين لنا أن البخارى والنسائى ، يقولان بجواز اللفظين جميعاً، والذى نراه هو أن لكل أسلوب مفهوماً ، يتضح به المراد ، وليس معنى ورود « رمضان » فى القرآن مضافاً إليه « شهر » أن هذا لازم له فى جميع الأحوال ، فإن لكل مقام مقالاً ، فالمقام فى الآية الشريفة يقتضى التعبير هكذا « شهر رمضان » وذلك لأن المراد بيان ما أنزل فى بعض أيام الشهر ، وهو القرآن الكريم كما هو مستفاد من قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أُنزِلَ

فِيهِ الْقُرْآن﴾ [البقرة١٨٥] فورد رمضان فى الآية بالتقييد بشهر ،لأنه أراد هنا الظرفية ، ولم يجر مجرى المفعولات ، وزال العموم عن اللفظ ، فالمراد هو بيان ما أنزل فيه ، وفى بعض أيامه ولياليه ، وليس فى جميع أوقات الشهر، فلذا كان أبلغ تعبير أن يقيده بما يفيد ذلك بقوله : « شهر رمضان » وأما فى سائر الأحاديث النبوية التى يراد بها العمل فى الشهر كله وصيام جميع الشهر فإن التعبير فيها جاء بدون التقييد بكلمة شهر كما فى الحديث الذى معنا وغيره من الأحاديث الأخرى ، ومن ذلك :

١- ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وأحمد من حديث جابر : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال فذاك صيام الدهر » .

٢- وعن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من صام رمضان وستة أيام بعد الفطر كان تمام السنة من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » رواه ابن ماجة .

فنرى أنه قال فى الحديث الأول ، وفى الثانى : « من صام رمضان » ولم يقل: « شهر » وذلك للدلالة على استغراق جميع أيام الشهر بالصوم . وقال سيبوية : « ومما لا يكون العمل إلا فيه كله المحرم وصفر يريد أن الاسم العلم يتناول اللفظ كله ، وذلك إذا قلت : الأحد أو الإثنين فإن قلت يوم الأحد أو شهر المحرم كان ظرفاً ، ولم يجر مجرى المفعولات ، وزال العموم من اللفظ ، لأنك تريد فى الشهر وفى اليوم ، ولذلك قال عليه السلام: من صام رمضان ولم يقل شهر رمضان ليكون العمل فيه كله . اهـ .

ما يؤخذ من الحديث

١- جواز أن يقال رمضان دون ذكر الشهر بلا كراهة .

٢- بيان ما لشهر رمضان من منزلة جليلة فى الإسلام ، وأنه أفضل الشهور عند الله تعالى .

٣- استدل بعض العلماء بهذا الحديث على أن الجنة فى السماء وفى هذا نظر .

٤- مضاعفة الأجر وتنزل الرحمة من الله تعالى إلى عباده الصائمين المخلصين فى صيامهم .

٥- حث الهمم واستنهاضها إلى اغتنام الأوقات المباركة بكثرة العبادة ، وصنائع المعروف ، والزيادة من الطاعة ، لاسيما فى رمضان.

❁❁❁

٤٦- الصيام .. ورؤية الهلال

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن يحيى قال : قرأت على مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر رمضان فقال : «لا تصوموا حتى تروا الهلال ، ولا تفطروا حتى تروه ، فإن أغمى عليكم فاقدروا له» .

❁ اللغة

« لا تصوموا حتى تروا الهلال » الهلال : هو غرة القمر ، أو لليلتين أو ثلاث أو سبع ، وتتحقق رؤية الهلال برؤية بعض المسلمين ، ولا يشترط رؤية كل إنسان ، كما سيأتى فى تفصيل ذلك . ومعمول الفعل محذوف ، لمعرفته من السياق وهو رمضان ، و« أل » فى الهلال للعهد ، أى هلال شهر رمضان .

« ولا تفطروا حتى تروه » والضمير فى « ترى » مفعول به يعود على الهلال.

« فإن أغمى عليكم » أى حال الغيم بينكم وبينه ، وقد جاء هذا اللفظ بروايات أخرى :

منها : « فإن غم عليكم فاقدروا له » ، وفى رواية أخرى : « فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوماً » وفى رواية أخرى : « فإن غمى عليكم

فأكملوا العدد » وفى رواية : « فإن غمـى عليكم الشـهر فعـدوا ثلاثـين » وفى رواية : « فإن أغمى عليكم فعدوا ثلاثين» . وكلها روايات واردة فـى صحيح مسلم متفقة فى معنى واحد ، ويقال : غمى بتشديد الميم وتخفيفها مع ضم الغين فيهما .

ووردت رواية فى صحيح البخارى بلفظ : « فـإن غبـى عليكـم فـأكملوا عدة شعبان ثلاثين » بفتح الغين وتخفيف البـاء ، وهـذا اللفـظ مشـتق مـن الغباوة وهى عدم الفطنة . وهو استعارة لخفاء الهلال ، ونقـل ابـن العربـى أنه روى : « عمى» بالعين المهملة من العمى ، قال ؛ وهو بمعنـاه ، لأنـه ذهاب البصر عن المشاهدات أو ذهاب البصيرة عن المعقولات .

« فاقدروا له » من التقدير ، بمعنى تدبير الأمر ، أو التروية فى تسـوية الأمر ، أو بمعنى التضييق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْـهِ ﴾ [الأنبياء ٨٧] والمراد من قوله ؛ فاقدروا له أى أكملـوا عـدة الشـهر ثلاثـين يوماً.

المعنى

لما كان لشهر رمضان منزلته العظيمة فى الإسلام ، ومكانته الجليلة التى وضحها القرآن الكريم ، إذ أمر بصيامه ، وبيَّن أنـه شـهر القـرآن ، الـذى ارتبطت به أجل الذكريات ، ففيه كان يتحنث[1] الرسول صلـى الله عليـه وسلم الأيام ذوات العدد ، وفيه صافح الوحى قلبه الشريف ، وتنزلت عليه

(١) يتحنث : بمعنى يتحنف أى يتبع الحنيفية وهى دين إبراهيم ، وإبدال الفاء بثاء كثير فى كلامهم ، أو التحنث : إلقاء الحنث وهو الإثم كما فى يتأثم ويتحرج .

أولى آيات القرآن الكريم فى الغـار : ﴿اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَـقَ خَلَـقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّـمَ بِـالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَـانَ مَـا لَـمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق١-٥] وهكذا عبقـت الحيـاة بـأولى نسـمات الإسـلام فـى هـذا الشهر المبارك، فلا غرو أن يفـرض الله تعـالى صومـه علينـا ، ويوجـهنا إلى أهميته ، ووجوب صومــه علـى كـل مـن شـهده شـكراً لله تعـالى ، وطاعـة لأمره، إذ يقول: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنْكُـمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْـهُ﴾ [البقـرة١٨٥] أى مـن حضر منكم شهر رمضان فليصمه ، والمراد بالشهر : إما أن يكون «الأيام» على معنى فمن شهد بعضه ، فهو مجاز لغوى من إطـلاق اسم الكـل علـى الجزء ، حيث أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد بعضاً منه ، وقد فسره ابن عباس وعلى وابن عمر على أن المعنى من شهد أول الشهر فليصم جميعه .

وإما أن يكون المراد « الهلال » على معنى : علمه عن طريق رؤيتـه لـه أو ثبوته عنده .

وهكذا ترى أن القـرآن قـد حـدد ميقـات صـوم رمضـان ، بأنـه شـهر ، وبثبوت حضور المسلم له ، وشهوده الهلال ، ومن قبـل هـذا قـال تعـالى : ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة١٨٤] أى مؤقتات بعدد معين أقل من أربعين ، إذ العادة أنه متى ذكر لفظ العدد يكون المراد به ذلك [1] .

وإذا كان القرآن قد وضع ميقات الشـهر المبـارك ؛ فـإن السـنة الشـريفة وضحت وفصلت تحديد الميقات ، وكيفية ثبوت رؤية الهـلال ، فـى قولـه صلى الله عليه وسلم : « لا تصوموا حتى تروا الهلال .. » إلخ .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ١ ص ١٠٥ .

ومعنى هذا : أن ثبوت رمضان لا يكون إلا برؤية الهلال ، وأن الشروع فى الصيام لا يكون إلا بعد الرؤية ، وكذلك الحال أيضاً بالنسبة للفطر من رمضان لا يكون إلا عند رؤية هلال شوال .

ولكن هل متى ثبت هلال رمضان وجب الصوم مباشرة ؟ أما المراد صيام اليوم المقبل ؟ .

الناظر إلى ظاهر الحديث يرى إيجاب الصوم بمجرد ثبوت الرؤية ليلاً كان ذلك أو نهاراً ، ولكن الحقيقة أن اللفظ فى الحديث محمول على صوم اليوم المستقبل ، فإذا ثبتت الرؤية أثناء يوم ما من الأيام فإن الصوم لا يجب إلا فى اليوم التالى المستقبل ولا يجب عليه الصيام مباشرة من حين ثبوت الهلال خلال يوم الرؤية . وهذا هو الرأى الصحيح ، وهو ما عليه جمهور المسلمين.

وأما الشيعة : فقد خالفوا الإجماع وأوجبوا الصيام مطلقاً ، فحملوا الحديث على ظاهره ، وأوجبوا الصيام عند رؤية الهلال مباشرة .

وفرق بعض العلماء بين ما قبل الزوال وما بعده .

وتثبت رؤية هلال رمضان برؤية بعض المسلمين له ، ولا يشترط فى الرؤية أن تكون من الجميع ، بل يكفى أن يشهد برؤية الهلال عدلان ، وكذلك عدل واحد على الرأى الأصح هذا بالنسبة لصوم رمضان ، وأما بالنسبة لرؤية هلال شوال وهو ما يترتب عليه النظر ؛ فإنه لا يكفى فيه عدل واحد إلا عند أبى ثور فإنه أجازه بعدل واحد .

ومن ذهب إلى قبول شهادة الواحد فى دخول رمضان ابن المبارك ؛

وأحمد بن حنبل والشافعى فى أحد قوليه ؛ ويدل على ذلك ما روى عن ابن عمر قال : « تراءى للناس الهلال فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى رأيته فصام وأمر الناس بصيامه [1] ».

وما روى عن عكرمة عن ابن عباس قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنى رأيت الهلال ـ يعنى رمضان ـ فقال : «أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : نعم قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم، قال : يا بلال أذن فى الناس فليصوموا غداً [2] .

وذهب مالك والليث والأوزاعى والشافعى فى أحد قوليه والهادوية إلى أنه لا يقبل خبر الواحد ، بل لابد من الاثنين ، واستدلوا أيضًا بحديثين :

الأول : عن عبد الحمن بن زيد بن الخطاب أنه خطب فى اليوم الذى شك فيه فقال : ألا إنى جالست أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألتهم وأنهم حدثونى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته [3] وانسكوا لها فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين يوماً ، فأن شهد شاهدان مسلمان فصوموا وأفطروا» [4] .

والحديث الثانى : عن أمير مكة الحارث بن حاطب قال : «عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننسك للرؤية فإن لم نره وشهد شاهدا عدل نسكنا بشهادتهما» [5] .

---

(١) رواه أبو داود والدارقطنى .
(٢) رواه أبو داود من حديث حماد بن سلمة ، ورواه الخمسة إلا أحمد .
(٣) النسك : العبادة ، وكل حق لله سبحانه وتعالى .
(٤) رواه أحمد والنسائى .
(٥) رواه أبو داود والدارقطنى .

ويجمع بين الحديثين الأولين ، اللذين دلا على قبول الواحد ، وبين هذين الحديثين اللذين دلا على عدم قبول الواحد بل لابد من شهادة اثنين : بتأويل الحديثين المتقدمين على احتمال أن يكون قد شهد أحد غير ابن عمر ، وغير الأعرابى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصبحت شهادة اثنين لا شهادة واحد .

ولكن يرد هذا بأنه احتمال فيه تعسف ، ولو صح تجويز ذلك ، لكان مفضياً إلى طرح أكثر أحكام الشريعة التى ثبتت بخبر الواحد .

قال الشوكانى : وأجاب الأولون ، بأن التصريح بالاثنين غاية ما فيه المنع من قبول الواحد بالمفهوم ، وهذان الحديثان ـ حديث عمر وابن عباس ـ يدلان على قبوله بالمنطوق ودلالة المنطوق أرجح (١) .

وهناك رأى ثالث : عن الصادق وأبى حنيفة وأحد قولى المؤيد بالله أنه يقبل الواحد فى الغيم لاحتمال خفاء الهلال عن غيره لا الصحو فلا يقبل فيه خبر الواحد بل لابد من الجماعة ، لبعد خفائه .

والخلاصة : أن الأصح فى دخول رمضان شهادة الواحد ، وفى خروج رمضان شهادة الاثنين ، ولعل الحكمة فى ذلك هى زيادة الحيطة فى أدلة فريضة الصيام كاملة غير منقوصة : قال الشوكانى : ويمكن أن يقال : إن مفهوم حديث عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قد عورض فى أول الشهر بما تقدم ، أما فى آخر الشهر فلا ينتهض ذلك القياس لمعارضته ، لا سيما مع تأيده بحديث ابن عمر وابن عباس .

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى .

والمراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « فإن أغمى عليكم فاقدروا له » : هو أن يقدروا له ثلاثين يوماً ، بإكمال شعبان ، وذلك عند حصول الغيم فى السماء ، وتعذر رؤية هلال رمضان ، وهذا ما ذهب إليه مالك والشافعى وأبو حنيفة والجمهور .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وغيره ممن أجاز صيام يوم ليلة الغيم عن رمضان ، إلى أن المعنى المراد من قوله : « فاقدروا له » : ضيقوا له وقدروه تحت السحاب ، إلا أن هذا التأويل للعبارة بعيد عن المراد ، مخالف لمدلول الروايات الأخرى .

وذهب ابن سريج وجماعة منهم مطرف بن عبد الله وابن قتيبة وآخرون إلى أن معناه : قدروه بحساب المنازل .

وقال المازرى : حمل جمهور الفقهاء قوله صلى الله عليه وسلم ، فاقدروا له على أن المراد كمال العدة ثلاثين ، كما فسره فى حديث آخر ، قالوا : لا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين ، لأن الناس لو كلفوا به ضاق عليهم ، لأنه لا يعرفه إلا أفراد والشرع إنما يعرف الناس بما يعرفه به جماهيرهم . اهـ.

هذا والذى نميل إليه هو إكمال العدة عند الغيم ، فهذا ما يتناسب مع سائر الروايات الأخرى ، وكذلك الحال أيضاً بالنسبة إلى هلال شوال إذا تعذرت رؤيته فيكمل رمضان ثلاثين يوماً .

وللإمام أحمد ثلاثة أقوال ، فيما إذا حال غيم دون مطلع الهلال ليلة الثلاثين من شعبان :

الأول : أنه يجب الصوم على أنه رمضان .

الثانى : لا يجوز فرضاً ولا نفلاً مطلقاً ، بل قضاء وكفارة ونذراً ونفلاً يوافق عادة ، وبه قال الشافعي ، وقال مالك وأبو حنيفة : لا يجوز عن فرض رمضان ، ويجوز عما سوى ذلك .

الثالث : المرجع إلى رأى الإمام فى الصوم والفطر [1]

ما يؤخذ من الحديث

١- أن رؤية الهلال هى الأساس بالنسبة لصيام رمضان ، وللفطر منه .

٢- إكمال عدة الشهر ثلاثين يوماً عند تعذر الرؤية بسبب الغيم .

٣- فى الحديث دلالة لما ذهب إليه الجمهور والشافعى ومالك إلى أنه لا يجوز صوم يوم الشك ، من شعبان عن رمضان إذا كانت ليلة الثلاثين بها غيم .

٤- مكانة شهر رمضان فى الإسلام ، وعناية المسلمين باستقباله .

٥- ثبوت رؤية هلال رمضان بعدل واحد ورؤية هلال شوال بعدلين على الأصح .

❁❁❁

(١) فتح البارى جـ ٥ ص ٢٢ .

٤٧- فضل الصيام وآدابه

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنى محمد بن رافع حدثنا عبد الرازق أخبرنا ابن جريج أخبرنى عطاء عن أبى صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل :كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يسخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

اللغة

« وأنا أجزى به » أى أنا الذى أثيب الصائم لا غيرى ، ففيه قصر موصوف على صفة ، وهو من قبيل القصر الإضافى ، وحدوث القصر هنا من تكرار المسند إليه بتقديمه على الفعل .

« الصيام جنة » الجنة بضم الجيم : الوقاية والستر ، وقال صاحب النهاية ومعنى كونه جنة : أى يقى صاحبه ما يؤذيه من الشهوات ، وقال القرطبى : جنة أى سترة يعنى بحسب مشروعيته فينبغى للصائم أن يصون صومه عن كل ما يفسد أو ينقص ثوابه . والصوم جنة : أى مانع من الرفث والآثام ومانع من النار ومنه المجن ، وهو الترس ، ومنه الجن لاستتارهم .

« فلا يرفث » المراد بالرفث هنا : الكلام الفاحش ، ويطلق عليه وعلى الجماع وعلى مقدماته ، وعلى ذكره مع النساء مطلقاً ، وأعم من ذلك أن الرفث شامل لكل فاحش أو فعل فاحش .

ويجوز فى ماضى الفعل التثليث ، وفى مضارعه الضم والكسر . وفى رواية « ولا يجهل » أى لا يفعل ما يفعله الجهال كالصياح والسفه ، والجهل : هو كل قول أو فعل خالف الحكمة والصواب .

« ولا يسخب » ويقال بالصاد « يصخب » وهو كثرة الصياح واللغط واضطراب الأصوات فى الخصام .

« فإن سابه أحد أو قاتله » أى إن شتمه أحد أو نازعه واعتدى عليه ، وفى رواية : « وإن امرؤ قاتله أو شاتمه » وامرؤ فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور ، والتقدير : وإن قاتله أو شاتمه امرؤ ..

« والذى نفس محمد بيده » أى روحه بقدرته ، وأقسم تأكيداً للخبر وعناية بشأنه ، والذى : صفة لموصوف محذوف ، والتقدير : والله الذى نفس محمد بيده.

« لخلوف فم الصائم » الخلوف هو تغيير رائحة الفم بسبب الامتناع عن الطعام والشراب ، وخلوف بضم الخاء واللام ، وهذه هى الرواية الصحيحة وقال البعض بفتح الخاء ، قال الخطابى : وهو خطأ ، وحكى بعضهم الوجهين .

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : فيه رد على من قال لا تثبت الميم فى

الفم عند الإضافة إلا فى ضرورة الشعر لثبوته فى هذا الحديث الصحيح وغيره .

« وللصائم فرحتان يفرحهما » أى يفرح بهما فحذف حرف الجر ووصل الضمير.

المعنى

هذا الحديث من الأحاديث القدسية وقد روى بإحدى طريقتى الرواية للحديث القدسى ، وهى: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل » أو «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه قال: » .

والطريقة الثانية لرواية الحديث القدسى : أن يقال: «قال الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم » .

وتتميماً للفائدة أورد هنا الفرق بين كل من الحديث القدسى والقرآن ؛ والفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى .

الفرق بين الحديث القدسى والقرآن :

١- أن الحديث القدسى ما كان لفظه من عند النبى صلى الله عليه وسلم على رأى البعض ومعناه من عند الله بالإلهام أو بالمنام بوحى جلى أولاً . وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى . بمعنى : أن ينزل به جبريل عليه السلام بلفظه ومعناه من عند الله سبحانه فى اليقظة وليس فى المنام ولا بالإلهام .

٢- الحديث القدسى تصح روايته بالمعنى . أما القرآن فتحرم روايته بالمعنى .

٣- الحديث القدسى لا يتعبد بقراءته أما القرآن فيتعبد بقراءته ويتعين فى الصلاة ولا كذلك الحديث القدسى .

٤- إن القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ فى كلماته وحروفه وأساليبه ، أما الأحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة.

٥- إن القرآن الكريم يحرم على المحدث مسه ، وعلى الجنب تلاوته ومسه بخلاف الأحاديث القدسية .

الفرق بين الحديث القدسى والنبوى :

هو أن الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته إلى الله بقول الرسول صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : كذا ؛ فلذا سمى قدسياً، أما الحديث النبوى فلم يرد فيه هذا النص ، لأن منه ما هو « توقيفى » مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون . وهذا ليس كلام الله . ومنه ما هو « توقيفى » جاء به الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فبينه للناس بكلامه وهذا القسم وإن كان مرجعه إلى الله تعالى الملهم والمعلم إلا أنه لما كان من قول الرسول صلى الله عليه وسلم كان حرياً أن ينسب إليه . ويطلق على القسمين حديثاً نبوياً وقوفاً بالنسبة عند الحد المقطوع به .

وقد أشار هذا الحديث إلى ثلاثة مقاصد من أهم مقاصد الصوم وهى :

١- تكفل الله تعالى بجزاء الصائمين .

٢- ثمرات الصيام .

٣- فرح الصائم .

أما بالنسبة للأول . وهو تكفل الله تعالى بجزاء الصائمين : فذلك فى قوله : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » وقد أضاف الله تعالى الصوم إلى نفسه تشريفاً لهذه العبادة ، وتكريماً للقائمين بها . وللعلماء آراء فى إضافة الصوم إلى الله تعالى ، أوردها الإمام النووى رحمه الله . قال : اختلف العلماء فى معناه مع كون جميع الطاعات لله تعالى . فقيل سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يعبد أحد غير الله تعالى به. فلم يعظم الكفار فى عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام ، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك .

وقيل : لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه ، بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة .

وقال الخطابى : لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ .

وقيل : إن الاستغناء عن الطعام من صفات الله تعالى فتقرب الصائم بما يتعلق بهذه الصفة وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شىء .

وقيل : معناه أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه ، أو تضعيف حسناته وغيره من العبادات أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها .

وقيل : هى إضافة تشريف ، كقوله تعالى ﴿ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ [الشمس ١٣] مع أن العالم كله لله تعالى اهـ.

وقيل : لأن جميع العبادات توفى منها مظالم العباد إلا الصيام ، ولكن يرد هذا القول بحديث : « المفلس الذى يأتى يوم القيامة بصلاة وصدقة وصيام ويأتى وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا » الحديث . فعلى ذلك فالصيام مشترك مع غيره من العبادات .

ونرجح أن الصوم عبادة لا يدخل فيها الرياء ، والمعنى ، أن كل عمل من أعمال الخير والطاعة يحصل صاحبها على حظ منها بسببها ، لأنها ظاهرة إلا الصوم ، فإنه لا يدخل فيه الرياء بالفعل، نعم قد يدخل فى الصوم الرياء بالقول كمن يخبر عن نفسه بأنه صائم ، فيكون الرياء فقط من جهة الإخبار بخلاف بقية الأعمال فإن الرياء قد يدخلها بمجرد فعلها .

وبمقابلة هذه الآراء العلمية ببعضها ، يمكننا استظهار ما تميزت به هذه العبادة من الفضل ، وأن جميع الآراء ، لا تختلف فى أن الإضافة إلى الله سبحانه تفيد تشريفها ، ومضاعفة الثواب لأصحابها ، يدل على ذلك قوله فى الحديث ـ بعد هذا ـ « وأنا أجزى به » ، وإذا كان الذى تكفل بالجزاء هو الله تعالى ، فهو لا شك جزاء وافر عظيم ، ولا نظير له ، عن أبى أمامه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : مرنى بعمل يدخلنى الجنة قال: « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » ثم أتيته الثانية فقال : « عليك بالصوم » . رواه البخارى ومسلم

ثانياً : أما بالنسبة للمقصد الثانى الذى أشار إليه الحديث وهو ثمرة الصوم، فقد بينها بقوله : « والصيام جنة » فالصيام وقاية ومانع من النار، ومن كل عمل يقرب إلى النار ، وهو - أيضاً - مانع من الرفث والآثام، وتظهر وقاية الصوم للمسلم من النار بمغفرة الله لما تقدم من الذنوب.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

كما تظهر وقاية الصوم أيضاً حين يشفع لصاحبه ، عن عبد الله بن عمرو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى ربى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه، ويقول القرآن ، منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ؛ فيشفعان[1]».

ويترتب على وقاية الصوم لصاحبه ، أن يكفه عن « الرفث » وهو فعل الفحش والكلام بفحش ، وأن يكفه عن « السخب » ويقال بالصاد «الصخب » وهو كثرة اللغط والصياح ، بل ولا يرد على من سابه ، فإن الصوم يسمو بخلق صاحبه إلى درجة العفو عمن أساء فيذكره ونفسه بما هو متلبس به من عبادة عظيمة « فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى امرؤ صائم » .

---

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

ولكن التعبير بقوله : فإن سابه أحد أو قاتله يفيد ظاهره المفاعلة ، وهى تقتضى وقوع الفعل من الجانبين فكيف يكون ذلك مع أن الصائم لا تصدر منه مثل هذه الأفعال خصوصاً المقاتلة ؟.

والجواب على هذا هو أن المراد بالمفاعلة هنا : التهيؤ لها ، والمعنى إذا تهيأ أحد لمشاتمة غيره أو مقاتلته ، فليقل : إنى صائم ، قال الحافظ ابن حجر : فإنه إذا قال ذلك أمكن أن يكف عنه ، فإن أصر دفعه بالأخف فالأخف ، قال : فالمراد من الحديث أنه لا يعامله بمثل عمله بل يقتصر على قوله : إنى صائم،اهـ . أو أن المراد : إرادة غير الصائم ذلك من الصائم ، أو أن المفاعلة تقع بفعل الواحد ، وهل يقول: « إنى صائم » مخاطباً بها من يكلمه ، أم يقولها لنفسه؟.

رجح الإمام النووى : أنه يخاطب بهذا القول من يكلمه ، وقال : كل منهما ـ أى مخاطبة نفسه ، ومخاطبة غيره ـ حسن ، والقول باللسان أقوى ولو جمعهما لكان حسناً .

وذهب بعض العلماء إلى أنه يقول ذلك فى نفسه .

وقال الرويانى : إن كان فى رمضان فليقل بلسانه ، وإن كان فى غيره فليقل ذلك فى نفسه .

وادعى ابن العربى أن موضع الخلاف فى التطوع ، وأما فى الفرض فيقوله بلسانه قطعاً .

ونقل الزركشى أن المراد بقوله : فليقل : إنى صائم مرتين ، يقوله مرة

بقلبه ومرة بلسانه فيستفيد بقوله بقلبه كف لسانه عن خصمه ، وبقوله بلسانه كف خصمه عنه ، وتعقب بأن القول حقيقة باللسان ، وأجيب : بأنه لا يمنع المجاز.

والذى نرجحه : هو القول باللسان والقلب معاً ، فيقولها لصاحبه ولنفسه ، لأن ثمرة هذا القول هى كف غيره عنه . وتذكير نفسه وصاحبه ما عليه الصائم من عبادة تتنافى مع كل خلق سيئ ، فإنه ينبغى على الصائم أن يكون عف اللسان عف الجوارح طاهر الظاهر والباطن ، متمثلاً بالخلق الإسلامى الرفيع ، ففى الصيام تربية لملكة المراقبة ، وسمو بالقيم الأخلاقية فى المسلم ، ولذا يتكرر هذا اللفظ: إنى صائم مرتين ليتأكد الزجر والانتهاء عن كل ما يسىء إلى العبادة .

ومن ثمار الصيام كذلك : أن جعل الله تعالى خلوف فم الصائم ، وهو تغير الفم أطيب عند الله من رائحة المسك ، وفى هذا توضيح لجزاء الصائم ومنزلته السامية عند ربه سبحانه وتعالى ، وهذا التعبير فى استطابة الرائحة عند الله ، إنما هو لتقريب المعنى ، فقد جرت العادة بتقريب الروائح الطيبة من الناس ، فاستعير ذلك فى الصوم لتقربه من الله ، ففيه كناية عن القبول والرضا ، حيث أطلق الملزوم ، وهو استطابة ريح المسك وأراد اللازم ، وهو القبول والرضا ، وإلا فإن الله منزه عن كل ما يشبه الحوادث .

وفى ذلك بيان بأن الصائم قريب من ربه .

وقيل : يجازيه به الله تعالى فى الآخرة فتكون نكهته أطيب من ريح المسك ، كما أن دم الشهيد يكون ريحه ريح المسك .

وقيل : إن حكم الخلوف والمسك عند الله على ضد ما هو عندكم .

وقيل : يحصل لصاحبه من الثواب أكثر مما يحصل لصاحب المسك .

وقيل : « رائحته عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك عندنا وإن كانت رائحة المسك عندنا خلافه » .

والذى نرجحه هو أن المراد بذلك : أن الخلوف أكثر ثواباً من المسك الذى ندب إليه فى الجمع والأعياد ومجالس الحديث والذكر .. وقد احتج العلماء على كراهة السواك للصائم بعد الزوال ، لأنه يزيل الخلوف فكما أن الشهيد يترك غسله محافظة على بقاء الدم المشهود له بالطيب فكذلك يترك السواك ـ وهو غير واجب ـ للمحافظة على بقاء الخلوف المشهود له بذلك.

ثالثاً : المقصد الثالث ، الذى أشار إليه الحديث الشريف ، هو فرح الصائم ، وفرح الصائم نوعان :

١- فرح فى الدنيا .

٢- فرح فى الآخرة .

أما فرحة الصائم فى الدنيا ، فعند فطره ، وذلك لتمام عبادته ، وقيامه بها على أكمل وجه ، وما يرجوه من ثواب عند الله عظيم وما أفاءه عليه

ربه خلال شهره المبارك من رحمات، حيث فتحت أبواب الجنة ، ومن أمان وطمأنينة حيث صفدت الشياطين ، وكذلك فرحه الفطرى حين يزول الجوع ويذهب الظمأ ، ومع هذا وذاك فإن سعادته النفسية والرضا الروحى الذى يحسه عند الفطر يجعله فى فرحة عظيمة يستبشر معها بنعمة من الله وفضل ، ورحمة منه ومثوبة .

وأما فرحه فى الآخرة : فذلك عند لقاء ربه تعالى ، حيث ينال الجزاء الأوفى ويذكر فضل الله عليه بتوفيقه إلى هذه العبادة المقبولة ، بل إن ربه يميزه يوم القيامة بمنزلة جليلة ، لا يحظى بها سوى الصائمين فيحظى برىٍّ لا ظمأ بعده تعويضاً له عن عطشه فى الدنيا .

عن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخرهم أغلق الباب[1]» وفضل الله تعالى عليهم عظيم ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة ١٧] .

ما يؤخذ من الحديث

١- فضل الصيام وماله من أثر فى تقويم النفس الإنسانية وإصلاحها .

٢- بيان ما ينبغى أن يكون عليه الصائم من مكارم الأخلاق ، وما يجب أن يلتزم به من آداب فى السلوك .

٣- أثر الصيام فى الآخرة ، وما يعد للصائمين من جزيل الفضل والمثوبة

(١) رواه البخارى ومسلم .

فرضاً كان الصيام أم نفلاً .

٤- دعوة الإسلام إلى القيام بسائر العبادات على أساس من الإخلاص وأن الطاعة القائمة على الإخلاص لها عند الله جزاء عظيم .

٥- الحث على الصوم ، لما له من فضل عند الله تعالى .

٦- وفى قوله : « أطيب من ريح المسك » ما يفيد أن الخلوف أسمى من درجة الشهادة فى سبيل الله ، فإن دم الشهيد شبه فقط بريح المسك ، وأما الخلوف فوصف بأنه أطيب منه ، ولعل السبب فى هذا هو أن أصل الخلوف فم الصائم وهو طاهر ، وأما الدم فبخلافه فكان ما أصله طاهر أطيب من غيره، قال ابن حجر : ولا يلزم من ذلك أن يكون الصيام أفضل من الشهادة.

ونرى إضافة إلى ما سبق أن الصوم هو أحد أركان الإسلام التى بنى عليها وهو فرض عين ، أما الجهاد ففرض كفاية وقد يكون فرض عين ، ومعلوم أن ما كان فرض عين مطلقاً وهو الصوم أفضل من فرض الكفاية على الراجح كما نص عليه الشافعى .

❀❀❀

٤٨- استحباب اختصاص بعض الأيام بالصوم

قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى :

وحدثني يحيى بن يحيى التميمي وقتيبة بن سعيد جميعاً عن حماد ، قال يحيى : أخبرنا حماد بن زيد عن غيلان عن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف تصوم؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى عمر رضي الله عنه غضبه قال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، نعوذ بالله من غضب رسوله ، فجعل عمر رضي الله عنه يردد هذا الكلام حتى سكن غضبه ، فقال عمر : يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر كله ؟ قال : لا صام ولا أفطر ، أو قال : لم يصم ولم يفطر ، قال : كيف من يصوم يومين ويفطر يوماً ؟ قال : ويطيق ذلك أحد ؟ قال : كيف من يصوم يوماً ويفطر يوماً ؟ قال : ذاك صوم داود عليه السلام، قال : كيف من صام يوماً ويفطر يومين ؟ قال : وددت أني طوقت ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا صيام الدهر كله ، صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله ، والسنة التي بعده ، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله».

« عن أبى قتادة رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم » رجل بالرفع على أنه وقع خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير : الشأن والأمر رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعض النسخ : « أن رجلاً أتى » قال النووى : وقد أصلح فى بعض النسخ « أن رجلاً أتى » وكان موجب هذا الإصلاح جهالة انتظام الأول.

« رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً » أى قنعنا واكتفينا بذلك، ولم نطلب أحداً غيره ، فلا إله إلا الله ، ولا مقصود سواه ، ولا دين إلا الإسلام الذى ارتضاه الله لنا ، ولا شريعة إلا شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

« وددت أنى طوقت ذلك » أى وددت أن أمتى تطيقه أو أنه قال ذلك مع قدرته عليه وطاقته به نظراً لما يتعلق به من حقوق أزواجه والقيام بمهام الرسالة والتبليغ وغير ذلك مما قد يحول دون القيام بهذا النوع من الصيام، على سبيل الدوام . و « الطوق والطاقة » بمعنى واحد ، أطاق الشىء إطاقة فهو فى طوقه : أى فى وسعه .

« أحتسب على الله » أى أرجو الله سبحانه وتعالى ، وأعد ذلك من فضله ، وفى حديث آخر : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

قال الخطابى : قوله « إيماناً واحتساباً » أى نية وعزيمة ، وهو أن يصومه على التصديق والرغبة فى ثوابه طيبة به نفسه ، غير كاره له ولا

مستثقل لأيامه ، وقال البغوى : احتساباً : أى طلباً لوجه الله تعالى وثوابه، يقال : فلان يحتسب الأخبار ويتحسبها أى يتطلبها . وجميع هذه المعانى متفقة فى أن تكون هذه العبادة خالصة لله تعالى ولا رياء فيها، ويقال : احتسبت بكذا أجراً عند الله تعالى ، والاسم : الحسبة وهى الأجر.

« عاشوراء » المشهور فى اللغة أنه ممدود وحكى قصره .

المعنى

يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث منهجه الحكيم فى المحافظة على طريق العبادة ، والاعتدال فيها دون إفراط أو تفريط ، ومن أجل هذا حرص على بيان أحكام الشريعة فى إطارها المعتدل دون تشديد على المسلمين، بل إنه كان يكره السؤال عن بعض الأمور التى يخشى بها الغلو ، أو الإفراط فكان يقول : « عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا » ويقول : « الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا [1] ».

وليس فى هذا المنهج النبوى الحكيم ، ما يتعارض مع التأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء به فى جميع أفعاله ، وإنما هو تقوية وتأكيد للاقتداء به ، وذلك لأن الاقتداء الكامل إنما يكون باستمرار العمل والمداومة على العبادة . وذلك إنما يتحقق بأن يباشر المسلم من أنواع الطاعات ما

---

(١) روى هذين الحديثين كل من البخارى ومسلم .

يمكنه مواصلة القيام به ، فإذ أخذ الإنسان نفسه بالكثير من أمور العبادة وتغالى فيها ، ترتب على ذلك تقصيره وعدم استمراره لما يتولد عن الغلو من الضعف الجسمى الذى يلحقه .

وفى هذا الحديث : توجه رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسؤال أراد أن يقف من ورائه على كيفية صوم الرسول صلى الله عليه وسلم ومقداره ، فغضب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قيل فى سبب غضبه: إنه كره مسألته ، لأنه يحتاج إلى أن يجيب السائل ، ويخشى أن تترتب مفسدة على تلك الإجابة ، فربما يعتقد السائل فيما أجابه عليه أنه أمر واجب الأداء ، أو يرى أنه قليل أو يقتصر عليه دون غيره ، مع أن حال السائل تقتضى أكثر من ذلك، أما بالنسبة للأمر الأول : فهو أن السائل ربما يعتقد الوجوب ، فيقوم بأداء العمل عن خطأ ، حيث اعتقد أنه واجب فقام بأدائه ، وبمرور الزمن لم يستمر على ذلك ، فأدى به الحال إلى التقصير ، كمن ابتدعوا الرهبانية فلم يفوا بشىء منها .

قال الله تعالى : ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد ٢٧] .

وفى كثير من الأحوال كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجيب السائلين ، ويقول : لو قلت نعم لوجبت ، وذلك ليمهد طريق اليسر فى الدين، عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله: فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم:

لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم [1] ».

وأما بالنسبة للأمر الثانى : فهو أن السائل قد يستقل صيام الرسول صلى الله عليه وسلم فيعرض عما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويشدد على نفسه فيكون قد خالف طريقته كما هو حال الرهط الذين سألوا عن أعماله صلى الله عليه وسلم فى السر واعتزموا على التشديد فأنكر عليهم وقال : « فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وأما بالنسبة للأمر الثالث : فهو أن السائل قد يقتصر على ما علمه دون غيره مع أن حاله تقتضى أن يصوم أكثر من ذلك ، فيكون بهذا قد حرم نفسه من زيادة الثواب .

واللائق بحال السائل أن يستفسر عما يخص نفسه حتى يكون الجواب على حسب مقتضى حاله ، كما حدث مع كثير ممن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واستفسروا منه عن كثير من الأحكام فكان يجيبهم بما يتناسب وأحوالهم .

وفى قول سيدنا عمر رضى الله عنه : « رضينا بالله رباً .. إلخ » بيان لما كانوا عليه من قوة فى العقيدة ، ومن حب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ومازال سيدنا عمر رضى الله عنه يكرر العبادة حتى ذهب الغضب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم توجه بالسؤال المناسب والصيغة المقبولة التى لا غبار عليها ، ليقف على ما يحبه الرسول صلى الله عليه وسلم من

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائى ، وبقية الحديث : " ذرونى ما تركتكم " وفى لفظ : " ولو وجبت ما قمتم بها" .

العبادة ، وليقف غيره من الذين لا يعرفون حكم مثل هـذه الأيـام وأفضليـة الصوم فى مثل هذه المقامات .

وكان السؤال الأول هو : كيف بمن يصوم الدهر كله ؟

فأجاب الرسول صلـى الله عليـه وسـلم بقولـه : لا صـام ولا أفطـر ، أو قال: لم يصم ولم يفطر على الشك من الراوى ، وفى رواية : أو ما صام وما أفطر.

حكم صيام الدهـر :

وقد اختلف العلماء فى حكم صيام الدهر :

١- فذهب الجمهور إلى جواز صيامـه بشـرط ألا يصـوم الأيـام المنـهى عـن صيامها ، كالعيدين وأيام التشريق الثلاثة .

٢- وذهب الشافعى وأصحابه إلى أن سرد الصيـام [١] ، إذا افطـر العيديـن وأيام التشريق الثلاثة ، لا كراهية فيه ، بل يكون مستحباً ، بشرط ألا يلحقه به ضرر ، ولا يفوت حقاً ، فإن تضرر أو فـوت حقـاً فمكـروه ، واستدلوا على ذلك بحديث حمزة بن عمرو ، قال : يا رسول الله إنـى أسرد الصوم أفأصوم فى السفر ؟ فقال : إن شئت فصم [٢] .

وثبت عن عمر بن الخطاب أنه كان يسرد الصيام ، وكذلـك أبـو طلحـة وعائشة وخلائق من السلف الصالح ، وأجـابوا : عـن حديـث . « لا صـام من صام الأبد» بما يأتى :

---

(١) سرد الصيام : تابعه .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

أولاً : أنه محمول على حقيقته بأن يصوم معه العيدين وأيام التشريق .

ثانياً : أنه محمول على من تضرر به أو فوت به حقاً ، ويؤيد ذلك أن النهى كان لعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد ثبت أنه عجز فى آخر عمره وندم على كونه لم يقبل الرخصة ، وأما إقرار حمزة بن عمرو فذلك للعلم بأنه لا يلحقه ضرر ، بل يقدر على أداء مثل ذلك .

ثالثاً : أن معنى « لا صام » أنه لا يجد من مشقته ما يجدها غيره ، فيكون خبراً لادعاء[1] اهـ.

٣- وذهب أهل الظاهر إلى منع صيام الدهر ، نظراً للظاهر من الأحاديث.

حكم صوم يومين وإفطار يوم :

والسؤال الثانى الذى توجه به سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه هو : كيف من يصوم يومين ويفطر يومًا ؟.

فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ويطيق ذلك أحد ؟ أى ومن يطيق من المسلمين مثل هذا الصيام ؟ والإجابة هنا بالاستفهام لاستبعاد مثل ذلك لعامة المسلمين ، ولا يدخل فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يواصل ، وكان يطيق أكثر من ذلك ، وثبت عنه أنه قال : «لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم .

حكم من يصوم يوما ويفطر يوماً :

والسؤال الثالث هو : كيف من يصوم يوماً ويفطر يوماً ؟ فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « ذاك صوم داود عليه السلام » . وصوم داود هذا ليس فيه ما يشق على النفس كما هو الحال بالنسبة لمن يصوم الدهر أو يصوم يومين ويفطر يوماً ، ولهذا كان أفضل أنواع الصيام وأعظمها عند من يستطيع القيام به ، وقد ورد وصف صوم داود بأنه أحب الصيام :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الصيام إلى الله صوم داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً [1] ». وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص : « صم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود عليه السلام وهو أعدل الصيام ، قال : قلت: فإنى أطيق أفضل من ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أفضل من ذلك ، قال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى من أهلى ومالى » رواه مسلم . واختلف العلماء فى ذلك:

فذهب بعضهم إلى أن صوم يوم وإفطار يوم أفضل من السرد ، لظاهر هذا الحديث .

وذهب آخرون : إلى تفضيل السرد ، وتخصيص هذا الحديث بعبد الله ابن عمرو ومن فى معناه ، أى ممن تتناسب أحوالهم وظروفهم مع هذا المقدار من الصوم فكأن تقدير الكلام : « لا أفضل من هذا فى حقك » ومما

---

(١) رواه مسلم .

يؤيد هذا ويرجحه : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينه حمزة بن عمرو عن السرد وأرشده إلى يوم ويوم ، ولو كان أفضل فى حق كل الناس لأرشده إليه وبينه له ، فإن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز [1] اهـ .

حكم من يصوم يوماً ويفطر يومين :

قال سيدنا عمر رضى الله عنه : كيف من يصوم يوماً ويفطر يومين ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « وددت أنى طوقت ذلك » والمراد بهذه الإجابة أحد أمرين :

١- إما أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم كان يطيق ذلك ؛ بطبيعته ، ولكنه قال ذلك بالنسبة لما يتعلق به من حقوق نسائه وما يقوم به من تبليغ الرسالة وملاقاة الوفود وتعليم الناس وغير ذلك من الحقوق ، فقد كانت هذه الأعمال الكثيرة الشاقة ربما لا تمكنه من أن يصوم - على سبيل الاستمرار - يوماً ويفطر يومين .

٢- وإما أن يكون المراد ، وددت أن أمتى تطوقه ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يطيق ذلك وأكثر منه ، يؤكد هذا المعنى ويرجحه : أنه صلى الله عليه وسلم كان يواصل ، ويقول : « لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ، ومعنى ذلك أن الله تعالى يجعل فى الرسول صلى الله عليه وسلم قوة الطاعم الشارب فهى قوة كقوة من يطعم ويشرب .

وقيل : هو على ظاهره وأنه يطعم من طعام الجنة كرامة له . والأصح

(١) صحيح مسلم بشرح النووى .

المعنى الأول ، وهو أنه فى قوة الطاعم الشارب ، والدليل على ذلك : أنه لو أكل حقيقة لم يكن مواصلاً ، وأيضاً : ففى رواية أخرى : « إنى أظل يطعمنى ربى ويسقينى » وكلمة « ظل » لا تكون إلا فى النهار . والأكل فى النهار لا يجوز للصائم .

ومما يدل على أن المراد بقوله : « وددت أنى طوقت ذلك » أمته ، ما جاء فى الرواية الثانية فى صحيح مسلم : « ليت أن الله قوانا لذلك » .

حكم صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

قال صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك ـ : « ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان فهذا صيام الدهر كله » أى أن الله تعالى يكتب لمن يحافظ على ثلاثة أيام من كل شهر ويحافظ على صوم رمضان حتى يأتى رمضان الذى بعده دون أن يكون من الماضى شىء عليه ، يكتب الله تعالى لمن يحافظ على ذلك ثواب صيام الدهر، لأن الله تعالى يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، وقد ذهب بعض العلماء إلى تعيين الأيام بأنها فى أول الشهر ؛ وذهب آخرون إلى أنها فى آخر الشهر .

والمعتمد هو أنها الأيام البيض : وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر.

والأصح فى معنى الأيام البيض : أن المراد بها الليالى التى يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره ، قال الجواليقى : من قال الأيام البيض فجعل البيض صفة الأيام فقد أخطأ ، قال فى الفتح ؛ وفيه نظر لأن اليوم الكامل هو النهار بليلته ، وليس فى الشهر يوم أبيض كله إلا هذه الأيام ،

لأن ليلها أبيض ونهارها أبيض فصح قول الأيام البيض على الوصف [1] اهـ

وأما ما روى عن معاذة العدوية أنها سألت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت : نعم ، فقلت لها : من أى أيام الشهر كان يصوم ؟ قالت : لم يكن يبالى من أى أيام الشهر يصوم .

فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يواظب على صيام ثلاثة أيام معينة من كل شهر حتى لا يظن أنها معينة ، ولكنه قد نبه بحديث آخر على سرة الشهر : فى قوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين (أو قال لرجل وهو يسمع) : يا فلان : أصمت من سرة هذا الشهر ؟ قال : لا ، قال : فإذا أفطرت فصم يومين . قال النووى : فكأنه يقول : يستحب أن يكون الأيام الثلاثة من سرة الشهر وهى وسطه وهذا متفق على استحبابه وهو استحباب كون الأيام الثلاثة هى أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وقيل : الثانى عشر والثالث عشر ، والرابع عشر . اهـ .

حكم صيام يوم عرفة :

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » أى أعتد ذلك عند الله تعالى فضلاً منه وإحساناً ، ومكرمة منه تعالى بمغفرة ذنوب ما مضى فى السنة التى ولت وما يأتى فى السنة التى تقبل .

---

(1) فتح البارى لابن حجر جـ ٥ ، ١٢٩ ط الحلبى .

والمراد بالذنوب التى يكفرها صوم هذا اليوم ؛ هى الذنوب الصغائر ، وقد ورد فى السنة أسباب كثيرة لتكفير الذنوب سوى هذا ، منها : الوضوء ، والصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، وإذا وافق تأمين الملائكة وغير ذلك . ويتم تكفير الذنوب على ذلك ، بأن كل واحد من هذه المذكورات صالح للتكفير فإن وجد ما يكفره من الذنوب الصغائر حصل التكفير لها وتم غفرانها ، وأما إذا لم يصادف صغيرة من الذنوب الصغائر ولا كبيرة من الكبائر كتبت به حسنات ، ورفع المسلم بسبب تلك الطاعة درجات ، وأما إذا صادفت تلك الطاعة - وهى صوم عرفة مثلاً أو غيره من الطاعات - معصية كبيرة ، ولم توجد صغائر فيرجى من فضل الله ورحمته أن يخفف بسببها من الكبائر والله ذو الفضل العظيم .

هذا وقد روى البخارى بسنده عن أم الفضل بنت الحارث أن ناساً تماروا عندها يوم عرفة فى صوم النبى صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه .

وروى بسنده - أيضاً - عن ميمونة رضى الله عنها : أن الناس شكوا فى صيام النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فأرسلت إليه بحلاب وهو واقف فى الموقف ، فشرب منه ، والناس ينظرون [1] .

ويجمع بين هذين الحديثين وبين حديث أبى قتادة الذى معنا ، يحمل صوم يوم عرفة على غير الحاج ، أو على من لم يضعفه الصوم على القيام

---

(١) الحديثان : رواهما البخارى ومسلم ، ويحتمل التعدد بأن تكون أم الفضل أرسلت إليه وميمونة أيضاً أرسلت إليه ، ويحتمل أنهما أرسلتا معاً فنسب الفعل إلى كل منهما .

بالذكر والدعاء المطلوب وسائر العبادات المستحبة ، وللعلماء في ذلك مذاهب :

١- مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة والجمهور : هو استحباب فطر يوم عرفة بعرفة للحاج ، وحكاه ابن المنذر عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان بن عفان وابن عمرو والثوري .

٢- ذهب بعض السلف ويحيى بن سعيد الأنصاري إلى وجوب فطر يوم عرفة للحاج ، أخذاً بظاهر بعض الأحاديث ، فقد ثبت أن أبا هريرة حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة [1] .

٣- وعن ابن الزبير وأسامة بن زيد وعائشة أنهم كانوا يصومونه وكان ذلك يعجب الحسن ويحكيه عن عثمان .

٤- وقال قتادة : لا بأس به إذا لم يضعف عن الدعاء ، ونقله البيهقي في المعرفة عن الشافعي في القديم .

٥- وقال الطبري : إنما أفطر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة ليدل على الاختيار للحاج بمكة لكيلا يضعف عن الدعاء والذكر .

٦- وقيل : إنما كره صوم يوم عرفة ، لأنه يوم عيد لأهل الموقف لاجتماعهم فيه ، ويؤيده ما رواه أصحاب السنن عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام » .

ونرجح رأي الجمهور ، وهو استحباب فطر يوم عرفة للحاج ، لما

---

(١) رواه أبو داود والنسائي ، وصححه ابن خزيمة والحاكم من طريق عكرمة .

يترتب على الفطر من القدرة على استغراق سائر اليوم بالكثير من العبادة والذكر ، بل إن بعض العلماء رأى أن ذاكر هذا اليوم إذا أفطر كان له مثل أجر الصائم ، قال عطاء: « من أفطره - أى يوم عرفة - ليتقوى به على الذكر كان له مثل أجر الصائم » .

حكم صيام يوم عاشوراء :

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله » . أى أن صيام يوم عاشوراء يكفر ذنوب السنة السابقة فحسب ، وقد قيل فى سبب زيادة منزلة يوم عرفة على يوم عاشوراء ، حيث إن صوم يوم عرفة كان أفضل لأنه يكفر سنتين ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة واحدة ، قيل : إن الحكمة فى ذلك أن يوم عاشوراء منسوب إلى موسى عليه السلام ويوم عرفة منسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فلذلك كان أفضل[1] اهـ .

وقد اتفق العلماء على أن صيام يوم عاشوراء سنة ، أما فى أول الإسلام وقبل أن يشرع صيام رمضان ففى ذلك خلاف :

- فيرى أبو حنيفة أن صوم يوم عاشوراء كان واجباً .

- واختلف أصحاب الشافعى فيه على وجهين : أحدهما : أنه سنة من يوم أن شرع وليس واجباً ، ولكنه متأكد الاستحباب ، فلما فرض صيام رمضان صار مستحباً دون الأول . والثانى : أنه كان واجباً . قال الإمام النووى رحمه الله : وتظهر فائدة الخلاف فى اشتراط نية الصوم الواجب

---

(١) فتح البارى جـ ٥ ص ١٥٢ .

من الليل ، فأبو حنيفة لا يشترطها ويقول : كان الناس مفطرين أول يوم عاشوراء . ثم أمروا بصيامه بنية من النهار . ولم يؤمروا بقضائه بعد صومه ، وأصحاب الشافعى يقولون : كان مستحباً فصح بنية من النهار ويتمسك أبو حنيفة بقوله : أمر بصيامه والأمر للوجوب ، وبقوله : فلما فرض رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه ، ويحتج الشافعية بقوله : هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه[1] اهـ .

ويتبادر هنا سؤال هو : لماذا كان لهذين اليومين ـ عرفة وعاشوراء ـ هذه الدرجة العظيمة من مغفرة الذنوب ؟

وللإجابة على هذا السؤال نذكر أولاً : أن لهذين اليومين أفضالاً كثيرة وردت بها السنة الشريفة ، وارتبطت بهما ذكريات هامة ، ففى يوم عرفة روى أصحاب السنن : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام » وهو يوم عبادة ونسك وله منزلته الجليلة فى الإسلام ، وأما يوم عاشوراء فهو اليوم الذى أظهر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون فصامه موسى شكراً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فنحن أحق بموسى »

ثانياً : إذا نظرنا إلى أول الحديث لنربط بين أوله وآخره ، ونرى جمال البلاغة النبوية الحكيمة ، وعظمة الفضل الإلهى الوافر ، أدركنا سر ما لهذين اليومين من درجة عظيمة ، فلئن كان سؤال بعض الناس للرسول صلى الله عليه وسلم فيه ما فيه من تكلف المشقة ، ولئن كان سؤال سيدنا عمر رضى الله عنه أيضاً عن صيام الدهر وغيره من أنواع الصيام ، لئن كان

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ١٨٢ ط . الشعب .

ذلك محاولة للوصول إلى مرضاة الله تعالى والفوز برحمته ومغفرته ، لئن كان كذلك ، فإن الله تعالى فتح أبواب الرحمة والقبول ، وأعد أسمى ما يتطلع إليه المسلم من المثوبة فى عبادات لا حرج فيها ، ولا مشقة تخشى من ورائها ، فصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ورمضان إلى رمضان فهذا صيام الدهر كله ، هذا فيما يتعلق بحصول الثواب والأجر .

أما ما يتعلق بغفران الذنوب ، فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، وقد جعل الله تعالى بعض الأيام أبواباً لهذه الرحمة ، فيوم عرفة يكفر السنة السابقة واللاحقة ، ويوم عاشوراء يكفر السنة الماضية هذا ما يرجوه الرسول الشفيع صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا ما يترقبه ويعده عند الله، ولا حرج على فضل الله ، فهو ذو رحمة واسعة .

ما يؤخذ من الحديث

١- رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم ورأفته بأمته ، فهو لا يكلفها ما لا تطيق ، فإن شريعته هى الحنيفية السمحة ، وصدق الله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة٢٨٦] .

٢- كيفية السؤال فى العلم ، بالنسبة لمقام الرسول صلى الله عليه وسلم وأدب الخطاب معه .

٣- حسن عرض السؤال للحصول على الفائدة ، ولإفادة الغير أيضاً .

٤- منزلة الصيام ، وما له من أثر عظيم فى تكفير الذنوب ، واستجلاب الرحمات .

٥- فضل صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصوم يوم عرفة ، وصوم يوم عاشوراء .

٦- لم يرد فى هذا الحديث ذكر صوم يوم الإثنين والخميس ، وقد ورد فى رواية أخرى ما يدل على فضل الصيام فى يوم الإثنين ، وسئل عن صوم يوم الإثنين فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل علىَّ فيه » وفى هذا الحديث من رواية شعبة : قال : وسئل عن صوم يوم الإثنين والخميس ، فسكتنا عن ذكر الخميس لما نراه وهما [١] .

هذا وقد وردت أحاديث بفضل صيام يوم الإثنين والخميس ، لأنهما يومان تعرض فيهما الأعمال ، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تعرض الأعمال كل إثنين وخميس فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم [٢] ».

❀❀❀

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أحمد والترمذى ، وابن ماجة بمعناه.

كتب للأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم تصدر عن

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى

١ - الشفاعة فى ضوء الكتاب والسنة والرد على منكريها .

٢ – التشريع الإسلامى - مصادره وخصائصه .

٣ – النفس فى القرآن .

٤ – أضواء من هدى النبوة .

٥ – من توجيهات الرسول .

٦ – سبل السلام .

٧ – أصحاب الجنة .





٢٥ شارع وادى النيل ـ المهندسين ـ القاهرة
تليفون : ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٠٢٧٩٦٥ ف : ٣٠٢٨٣٢٨
E-mail: atlas@innovations-co.com

المحتويات

